الجمهوريـــة الجزائـــريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليـــــم العالـــي والبحـــث العلمـــي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوصوف – ميلة –

معهد الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المرجع:............

السجن في شعر ابن زيدون

مذكرة معدة استكمالا لمتطلبات نيل شهادة الماستر

الشعبة: **أدب عربي** التخصص: **أدب قديم**

إعداد الطالب:
* عبد الغاني بوجزة

إشراف الأستاذ:
* عمار قرايري

الأستاذ سليم بوعجاجة	عضوا ورئيسا للجنة
الأستاذ سعاد الوالي	عضوا ومناقشا
الأستاذ عمار قرايري	مشرفا ومقررا

السنة الجامعية : 2015/2014

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾ صدق الله العظيم

سورة الشورى [الآية :10]

دعـــــاء

"يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين أوتوا العلم درجات"

"صدق الله العظيم"

اللهم علمنا أن نحب الناس كلهم كما نحب أنفسنا، وعلمنا أن نحاسب أنفسنا كما نحاسب الناس، وعلمنا أن التسامح هو أكبر مراتب القوة، وأن الانتقام هو أول مظاهر الظلم

اللهم لا تجعلنا نصاب بالغرور إذا نجحنا ولا باليأس إذا أخفقنا، بل ذكرنا دائما أن الإخفاق هو التجربة التي تسبق النجاح.

اللهم إذا أعطيتنا نجاحا فلا تأخذ اعتزازنا بكرامتنا و إذا أسأنا إلى الناس فامنحنا شجاعة الاعتذار و إذا أساء إلينا الناس فامنحنا شجاعة العفو.

" يا رب"

شكر وعرفان

في هذا المقام لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل شكري وعظيم امتناني إلى أستاذي "عمار قرايري"، بالرغم من أن جميع كلمات الشكر والثناء لا تكفي لإعطائه حقه، وذلك لما قدمه لي من كرم كبير ومساعدة إلى غاية آخر لحظة لإنجاز هذا العمل، فقد كان المشرف الحق على تلميذه، والأب العطوف على ابنه، فشكرا لك أستاذي، وادعو الله أن يجعل كل المجهودات التي بذلتها في ميزان حسناتك يوم القيامة.

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة وذلك لتفضلهم بقبول مناقشة هذا البحث المتواضع وتقييمه.

كما أتقدم بخالص شكري وامتناني لكل أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها بالمركز الجامعي ميلة، حيث مهدوا لي طريق العلم والمعرفة وعلموني معنى الجهد والبحث والصبر.

ولا يفوتني أن أعبر عن شكري وعرفاني وامتناني إلى كل أصدقائي وزملائي وزميلاتي في الدراسة، ولكل من أمدني بيد المساعدة والتشجيع من قريب أو من بعيد لإعداد هذا البحث.

إهـــداء

أهدي ثمرة جهدي إلى أعز الناس إلى قلبي، إلى الشمس الوضاءة التي أنارت لي دروب النجاح في الحياة والتي كان دعائها سر نجاحي ، إلى التي حملتني وأشبعتني حبا وعطفا . . . . .إليك أمي

إلى من رعاني وعلى حب العلم رباني، والذي كلت أنامله ليقدم لي الراحة والسعادة . . . . .إليك أبي .

إلى الذين عشت معهم سنين عمري وشاركوني بسمة الحياة وآلامها إليكم إخوتي : طارق، صبرينة ، سهام، ياسمينة .

إلى أصدقائي: عبد الباسط، ،عادل ، طاهر ،بوجمعة ، يوسف ،هشام ،حسين ،أمين بن قيراط رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه .

إلى كل زملائي وزميلاتي الذين كانوا برفقتي أثناء دراستي في الجامعة

إلى كل من ساعدني في إنجاز هذا العمل ولو بكلمة تشجيع

إلى كل من ساهم في تعليمي طوال حياتي الدراسية، إلى كل من عرفت وصادقت وأحببت . . . . . أهدي عملي هذا .

عبد الغاني

مقدمـــــة

مقدمـــــة :

لم يكن نظم العرب للشعر قديما مجرد تخليد لجميل مآثرهم بل كان أيضا من أجل التنفيس عن خواطرهم وآلامهم وأحزانهم، وخاصة في العصور التي شهدت اضطربا سياسيا كبيرا، وخير مثـــال على ذلك عصر ملوك الطوائـــف بالأندلس الذي تميز بالاضطراب والفوضى والصراع الدائم بين الملوك والأمراء، وعلى الرغم من أن الشعراء قد استفادوا من هذا الوضع وذلك من خلال تعدد مصادر الأموال والجوائز، إلا أن مصير أكثرهم كان السجن، حيث أن الشاعر وبسبب المكانة الكبيرة التي صار يشغلها أصبح يثير خوف الملوك والأمراء ويتهم في أغلب الأحيان بالخيانة و التآمر ويرمى به في السجن، وما وقفنا عند هذا العصر إلا لأنه جاء بشخصية عظيمة اسمها "ابن زيدون".

فقد شغل ابن زيدون الناس قديما وحديثا، فكتبت عنه الكتب شرقا وغربا، وأقيمت حوله الملتقيات واختلف حوله المفكرون والباحثون، فمنهم من يرى أنه كان شاعر لهو ومجون، ومنهم من يرى أنه كان نرجسيا لا تهمه إلا نفسه ومصلحته، وأيا كان الشأن في ذلك فإن ابن زيدون قد ملأ الأفاق بشعره الذي تجاوز كل الحدود والمسافات.

ولذلك فقد آثرت أن أتناول هذا الموضوع الموسوم بـــ :"السجن في شعر ابن زيدون" من أجل أن أسلط الضوء إلى جانب مهم من شعره ظل مبهما ولم يلق الاهتمام اللازم.

وأما عن سبب اختياري لدراسة السجن في شعر ابن زيدون، فيمكن إرجاعه إلى عدة عوامل ذاتية وموضوعية، أما الذاتية فتتمثل في ميلي إلى دراسة شعر السجون في الشعر العربـــي القديم وذلك إيمانا منـــي أن معظم الشعراء كلما زادت معاناتهم وآلامهم كلما زاد إبداعاهم، كما أني لا أنكر إعجابي بشعر ابن زيدون بما فيه من متعة جمالية وبناء فني متكامل.

وأما الأسباب الموضوعية فتكمن في أن أغلب الدراسات قد ركزت على شعر ابن زيدون الغزلي وقصة غرامه مع ولادة بنت المستكفي وأهملت جانبًا مهمًا من شعره ولذلك جاء هذا البحث ليسلـــط الضوء على سجنياته التـــي لم تلق – حسب علمي–الاهتمام اللازم من الدارسين والباحثين.

وأما الإشكالية التي أود أن أطرحها من خلال اختياري لهذا الموضوع فتتمثل في الآتي :

-كيف تجلت صورة السجن في شعر ابن زيدون؟

-ما هي مصادر وأنماط الصورة في سجنياته؟

-ما هي أهم مضامين سجنياته؟

وقد اقتضت الإجابة عن هذه الأسئلة أن تكون منهجية البحث وفق الخطة التالية :

بدأتها بمقدمة، ثم مدخل تحت عنوان : الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في عصر ملوك الطوائف، حيث عبّدت من خلاله طريق البحث، وحاولت التعريف بملوك الطوائف وأهم دويلاتهم والصراع الموجود بينهم ومكانة الشاعر في هذا العصر والأسباب التي كانت تؤدي به إلى السجن.

أما الفصل الأول فقد تضمن شعر السجون، حيث تطرقت فيه إلى مفهوم السجن لغة واصطلاحا، ومفهوم شعر السجون والعلاقة الموجودة بين الشعر والسجن، ثم الحديث عن تطور شعر السجون عند العرب، حيث حاولت تقصي هذه الظاهرة في كل عصر وذكر أسباب السجن وأهم الشعراء الذين تعرضوا لمحنة السجن، كما تطرقت إلى موقف الشاعر السجين من السلطان.

وأما الفصـــل الثانـــي فقد دار حول مضامين سجنيات ابن زيدون، في حـــين خصصت الفصل الثالث للصورة في سجنيات ابن زيدون، حيث تطرقت فيه إلى مفهوم الصورة عند النقاد العرب القدامى والمحدثين، ثم مصادر الصورة وأنماطها في سجنيات ابن زيدون، وأخيرا أدوات تشكيل الصورة من صور بيانية وبديعية، ثم أنهيت البحث بخاتمة جاءت متضمنة لأهم النتائج.

أما المنهج الذي قاربته في بحثي هذا فهو المنهـــج الوصفي التحليلي، كما استعنت ببعض المناهج المساعدة مثل المنهج التاريخي وغيره، وذلك لأن طبيعة الدراسة استدعت توظيف أكثر من منهج .

وقد أفاد هذا البحث من بعض الدراسات السابقة والتي نذكر منها :

عناصـــر الإبداع الفني في شعـــر ابن زيدون لفوزي خضر، وشعر ابن زيدون قراءة جديدة لوهب روميـــة، والأســـر والسجن في شعر العرب لأحمد مختار البرزة وشعراء وراء القضبان لحسن نعيسة.

وقد واجهتني في انجاز هذا البحث بعض الصعوبات منها : قلة المراجع التي تناولت هذا الموضوع، كما أن معظم الكتب التي تناولت موضوع السجن قد تحدثت عنه بصورة مختصرة جدا، وهذا ما دفعني إلى التنقيب والبحث في ثنايا الدواوين والكتب ولكن هذه الصعوبات في الواقع قد زادت من لذة البحث ومتعته، كما زادتني إصرارا على إكمال البحث.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي "عمار قرايري" على كل ما قدمه لي من تشجيع وعناية، ولكم قدرت فيه صبره وحسن استماعه.

وإني لا أزعم لهذه الدراسة أنها قد أتت بما لم يأت به الأوائل، وحسبي أنني قد بذلت جهدا وحاولت إضاءة جانب مهم من شعر ابن زيدون، فإن أصبت فلله الحمد بدءا وختاما على توفيقه وإن جانبت فالكمال لله وحده.

مدخـــــل

الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في عصر ملوك الطوائف (عصر الشاعر)

أولا : عصر ملوك الطوائف.

ثانيا : الحياة السياسية والاجتماعية في عصر ملوك الطوائف.

ثالثا : الحياة الأدبية في عصر ملوك الطوائف.

مدخـــل :

ما ذكرت الأندلس إلا وتذكرنا حضارة امتدت لعدة قرون من سنة 92هـ إلى غاية سنة 897هـ، أوجدت تاريخا متألقا لأمة امتزجت دماؤها بثرى تلك الأصقاع، وذلك حينما شهر العرب سيوفهم مجاهدين فصانوا الأرض والعـــرض، ففي الفـــردوس المفقود– الأندلـــس – تفتحت الأبواب لظهور أدب تنوعـــت اتجاهاته وفنونه، حيث تجاوز عدد الشعراء والأدباء المئات، وقد مرت الأندلس بعدة عصور، وكان أهم وأبرز هذه العصور عصر ملوك الطوائف، وذلك لما تميز به من أحداث وفتن وصراعات وأحقاد لم تشهدها بلاد الأندلس من قبل، حيث أصبح القتل والسجن هما العنوانين البارزين لهذا العصر، كما شهد هذا العصر أيضا ازدهار الحركة الشعرية والأدبية ازدهارا كبيرا وظهور أشهر الشعراء والأدباء الذين أنجبتهم الأندلس، ويكفي فقط أن نذكر منهم بحتري الأندلس ابن زيدون ، فماذا نعني بعصر ملوك الطوائف؟ و كيف كانت الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في هذا العصر؟

أولا : عصر ملوك الطوائف

لقد كان عصر ملوك الطوائف هو الوريث لتركة الخلافة الأموية وما كانت تتضمنه من أمجاد وانحطاط على حد سواء، حيث توزعت خيرات ذلك العهد على طوائف وفئات من كل جنس ودين، ويمتد هذا العصر في الأندلس " من 422هـ إلى أن قضى ابن تاشفين على ملوك الطوائف سنة 484هـ، وأوائل ملوك الطوائف في الأصل كانوا عند سقوط الخلافة المروانية ولاة مدن مختلفة، فاستبدوا بما كان تحت أيديهم، ثم أورثوا الحكم عليه أولادهم وأتباعهم "[1]. والذين كان همهم الوحيد هو الحرص على البقاء على رأس الحكم وتوسيع رقعة سلطانهم وتحصينها بالاستيلاء على أراضي الآخرين، ولذلك

[1] عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي، ج4، (ط2)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1984م، ص ص 385، 386.

تعد "هذه الفترة من أصعب فترات التاريخ الأندلسي قاطبة وأكثرها تعقيدا وتشابكا، فعلى الرغم من قصر مدتها – التي لا تتجاوز القرن الواحد – إلا أنها تتسم بالأحداث المتعاقبة والأطماع المتزايدة (...) فغدت الأندلس كحبات العقد المتناثرة التي لا يجمعها رابط عرق أو دين"[1] فقد كان هذا العصر غنيًّا بالأحداث السياسية منذ بدايته إلى غاية نهايته، كما تميز بنشاط وازدهار الحياة العلمية والأدبية.

ثانيا : الحياة السياسية والاجتماعية في عصر ملوك الطوائف

تميز هذا العصر بكثرة الأحداث السياسية والصراعات والحروب المستمرة بين ملوك الطوائف، مما جعل بلاد الأندلس ميدان فتن وصراعات داخلية عنيفة عملت على تشتيت الوحدة الترابية لبلاد الأندلس، حيث ظهرت العديد من الدويلات في مساحة جغرافية صغيرة، وأخذت كل واحدة منها تسعى للتوسع على حساب جيرانها.

ويصعب ضبط عدد دويلات الطوائف وذلك بسبب " تولي نفر من ملوكها مدنا مختلفة في أزمنة مختلفة، وكان بعضهم في أثناء ذلك ينتزع بعض هذه المدن من بعض، وكذلك كان ملوك النصارى يستولون – بين الحين والحين – على عدد من هذه المدن، ولكن بإمكاننا أن نقول أن دويلات الطوائف كانت ثلاثا وعشرين" [2] يحكم كل واحدة من هذه الدويلات حاكم أو ملك يدعي لنفسه أحقية الخلافة، كما أن هؤلاء الملوك جميعا "تلقبوا بألقاب تدل على سعة الملك وعظم الشأن، وهي لا تنم عن حالهم وسلطانهم

---

[1] راغب السرجاني : قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، (ط1)، مؤسسة اقرأ للنشـــر والتوزيـــع، القاهرة، مصر، 2011م . ص321.

[2] عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي، ص 368.

الحقيقي"[1] ومـــن هذه الألقاب نجد الناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد وغيرها، وقد عرضهم ذلك للنقد والسخرية، حيث نجد ابن رشيق يصف حالهم فيقول : [2]

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتمـــد فيهـــا ومعتضـــد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد

فقد سخر ابن رشيق في هذين البيتين من هؤلاء الملوك الذين يلقبون أنفسهم بأسماء الخلافة وهم ليسوا أهلا لها ولا يملكون الصفات اللازمة لهذا المنصب، ولذلك شبههم بالهر الذي يحاول أن يحاكي الأسد دون جدوى أو فائدة، ويلاحظ على هؤلاء الملوك جميعا أنهم فتحوا المجال واسعا أمام النصارى والإسبان من أجل التدخل في شؤون الأندلس الداخلية، وذلك من خلال الاستعانة بهم في صراعاتهم مع بعضهم البعض مقابل دفع إتاوات لألفونسو السادس ملك النصارى، الذي نجده يصف ملوك الطوائف بقوله:" الرأي كل الرأي تهديد بعضهم ببعض وأخذ أموالهم، حتى ترق وتضعف وتأتي عفوا، كالذي جرى بطليطلة، إنما كان من فقر أهلها وتشتتهم مع اندثار سلطانها حتى صارت إلي بلا مشقة" [3]، فهذا القول يوضح السياسة التي كان يتبعها النصارى وفي مقدمتهم ألفونسو السادس* من أجل السيطرة على بلاد الأندلس وذلك بتحريض ملوك الطوائف على قتال بعضهم البعض حتى يضعفوا وتسقط دويلاتهم الواحدة بعد الأخرى دون الحاجة إلى القتال وتبذير الأموال، وهذا ما يؤكده أحد المؤرخين عند كشفه لحقيقة ملوك الطوائف بقوله:" وصاروا لألفونسو عمالا يجبون له الأموال ولا يخالف أمره أحد

---

[1] سعيد عبد الله البشرى : الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، أطروحة دكتوراه، مخطوط، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1986م، ص65.

[2] عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي، ص386.

[3] عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس : كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، حرره : علي عمر، (دط)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006م، ص ص 94، 95.

* ألفونسو السادس : هو ملك قشتالة، تمكن من توحيد أستورية وليون وقشتالة تحت سلطته، وفرض إتاوات على ملوك الطوائف، كما تمكن من السيطرة على طليطلة سنة 478هـ، وأراد التوسع في الأندلس إلى أن تصدى له يوسف بن تاشفين وهزمه في معركة الزلاقة سنة 479 هـ.

ولا يتجاوز له الحد " [1]، فقد كان على هؤلاء الملوك والأمراء التعاون والتضامن فيما بينهم من أجل الحفاظ على وحدة الأندلس ولكنهم " راحوا يستعينون بعدو أمتهم المتربص الذي يتمنى هلاكهم جميعا، ضد بعضهم البعض، (...) ولعل ما أصاب الأندلس بسوء فعالهم وسقم خلقهم كان أكثر مما أصيب به بقوة عدوهم " [2] حيث أرهقوا السكان والرعية بالضرائب وذلك من أجل الإنفاق على حروبهم المستمرة ودفع الإتاوات للنصارى من أجـــل مساعدة بعضـــهم على بعـــض، وهذا مـــا أدى إلى سوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية بالأندلس في هذا العصر، وكل ذلك أدى إلى خضوع السكان إلى هجرات إجبارية أو اختيارية بحثا عن أوضاع أحسن أو هربا من تسلط وقهر بعض هؤلاء الملوك الذين وصل بهم الحال إلى القتل والقهر والنفي والسجن في حق شعوبهم من أجل إبراز قوتهم وسلطانهم وجبروتهم، وترهيب الشعب حتى لا يقوم بأي تمرد يهدد ملكهم" فالمعتمد بن عباد كان يحتفظ بجماجم أعدائه في خزانة بجوف قصره، وباديس بن حبوس* كان يضرب به المثل في القسوة وسفك الدماء، وقرب بعضهم اليهود وأستعملهم في شؤو ن الدولة وخاصة في غرناطة التي عرفت بغرناطة اليهود لكثرتهم فيها " [3] وبذلك أخذت قوة الأندلس في التلاشي والزوال ودخلتها عوامل الانحلال والتفكك، ولعل أوضح صورة لحال الأندلس في هذا العصر ما سطره المؤرخ الكبير ابن الخطيب بقوله:" وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار"[4].

---

[1] إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، (دط)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1997م، ص15.

[2] عبد الرحمن علي حجي : التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، (ط2)، دار القلم، دمشق، 1981م، ص326.

* باديس بن حبوس: هو باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي حكم غرناطة بعد وفاة أبيه سنة 42هـــ، وقد وصفه المؤرخون بالشدة والصرامة، دام حكمه طويلا إلى أن توفي سنة 465 هـــ.

[3] يوسف شحدة الكحلوت : الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، (دط)، 2010م، ص33.

[4] محمد المنوني وآخرون : التاريخ الأندلسي من خلال النصوص، (ط1)، شركة النشر والتوزيع المدارس ، الدار البيضاء، 1991م، ص96.

فقد كانت كل دولة من دويلات الطوائف تتألف من مدينة أو أكثر، ويكون ذلك بحسب المقدرة والنفوذ الذي تمتلكه العائلة التي تحكمها، ويمكن أن نقسم هذه الدول تبعا للعوائل التي حكمتها وانتمائها العرقي إلى ثلاث فئات وهي :

أ. الدول العربية

ب. الدول البربرية

ج. دول الموالي

1. الدول العربيـــــة:

وتتمثل هذه الدول في :

أ. بنو عباد في إشبيلية (414هـــ- 484هـــ) :

تأسست هذه الدولة على يد القاضي إسماعيل بن عباد، وقد بدأت أولا في إشبيلية، ثم أخذت في التوسيع على حساب الدول المجاورة لها حتى أصبحت أكبر دولة من دول الطوائف.

حيث أصبحت الدولة تمتد من" شرقي الوادي الكبير حتى المحيط الأطلسي غربا والجزيرة الخضراء جنوبا" [1]، وقد كان المعتضد بن عباد كغيره من ملوك الطوائف يقوم بدفع الجزية لفردناند وذلك من أجل كسب وده، ولما جاء المعتمد سار على سياسة أبيه في التوسع على حساب الجار" فاستولى على مرسية وتحرش بمملكة غرناطة، وفاوض ألفونسو ليحالفه كي يحتل غرناطة معا، وكان ابن عمار* رسوله إليه وظل المعتمد يدفع الجزية لألفونسو، حتـــى اضـــطر إلى الاستعانة بالمرابطين بعد سقوط طليطلة" [2]. وذلك

---

[1] إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص13.

* ابن عمار : وهو أبو بكر محمد بن عمار المهري الأندلسي، ولد سنة 422 هـــ، وقد مدح المعتضد ثم علت مكانته في أيام المعتمد ولقب بذي الوزارتين، وقد قتله المعتمد سنة 477 هـــ.

[2] المرجع نفسه : ص13.

من أجل التصدي لأطماع ألفونسو السادس، وقد سقطت دولة بنو عباد على يد المرابطين سنة 484هـــ، وسجن المعتمد بن عباد وأخذ أسيرا إلى مدينة أغمات إلى أن توفي بها وبذلك تطوى صفحة دولة من أقوى الدول في هذا العصر.

ب. بنو هود أصحاب سرقسطة أو الثغر الأعلى (400هـــ- 536هـــ) :

وهي من أعظم ممالك الطوائف من حيث السعة والموقع، وقد خضعت سرقسطة لسليمان بن هود والذي كان في حرب مستمرة مع المأمون بن ذي النون، وقد لجأ كلاهما للإسبان طلبا للنجدة،" وقبل موت سليمان قسم مملكته بين أولاده الخمسة، فجعل منها خمس ممالك متنابدة، وأبرز الأخوة أحمد الملقب بالمقتدر، وقد تغلب على ثلاثة من أخوته وقامت بينه وبين الرابع حسام الدولة منازعات طويلة " [1]، وقد كان المقتدر كغيره من ملوك ذلك العصر يدفع الجزية لملوك قشتالة، كما أنه طلب مساعدة القنبيطور* من أجل الاستيلاء على دانية، وقد سقطت دولة بنو هود على يد الإسبان سنة 536هـــ.

ج. بنو القاسم الفهريون في البونت :

مؤسس هذه الدولة هو عبد بن قاسم ثم خلفه ابنه محمد عين الدولة (421هـــ-434هـــ)، ثم جاء بعده أحمد عز الدولة(440هـــ) وقد تعرضت هذه الدولة الصغيرة لغارات السيد القنبيطور، ودفعت له الجزية، حتى استولى عليها المرابطون سنة 497هـــ.

د. بنو حمود الحسنيون :

استقلت الدولة الحمودية في جنوب الأندلس وخاصة في مالقة والجزيرة الخضراء بعد خروجهم من قرطبة أيام الفتنة البربرية، وقد رشحوا أنفسهم للخلافة أثناء الفتنة، " فأصبح علي بن حمود خليفة بقرطبة وتلقب بالناصر(ت 408 هـــ) وولي بعده

---

[1] إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص13.

* القنبيطور : ويسمى أيضا بالكنبطور واسمه الحقيقي رودريجو دياث ذي بيبار، وهو فارس قشتالي، ولد سنة 435هـــ، وقد نفي سنة 474 هـــ واتجه إلى سرقسطة وخدم المقتدر بن هود، فأطلق عليه اسم السيد، وقد سيطر على بلنسية وحكمها حتى وفاته.

أخاه القاسم بن حمود المأمون، ثار عليه ابن أخيه يحي بن علي بمالقة واستولى على قرطبة(413هـــ) ،وتلقب بالمعتلي(...) إلى أن قتل(427هـــ) فبويع إدريس بن علي ومن بعده حسن بن يحي"[1] وقد كان صراع الحموديين بين بعضهم البعض سببا لضعفهم، وقد استغل هذه الفرصة بنو عباد الذين كانوا يطمحون للاستيلاء على مملكتهم وقد نجحوا في ذلك سنة 446هـــ، حيث ضم المعتضد بن عباد الجزيرة الخضراء إلى مملكته، ثم زالت الدولة الحمودية في مالقة سنة 449هـــ، وبالرغم من كون الحموديين من العرب ولكن اعتمادهم كله كان على العنصر البربري وهذا ما جعل سياستهم تتجه لمناصرة الدول البربرية والسير في خطها ضد دول الطوائف الأخرى وخاصة إشبيلية.

2. الدول البربرية :

أ. بنو زيري الصنهاجيون في غرناطة ومالقة (403هـــ- 483هـــ) :

وقد ارتبطت بمؤسسها حبوس المظفر الصنهاجي الذي ارتقى بها إلى أعلى المراتب، وكون له جيشا قـــويا وعقد بينه وبين جيرانـــه روابط المودة، ثم "خلفه ابنه باديس، فكانت بينه وبين زهير العامري صاحب ألمرية حرب، قتل فيها زهير وكاتبه، ثم مد نظره إلى ما في يد بني حمود وكانوا قد ضعفوا فاستولى على مالقة "[2] وهنا اصطدم بابن عباد فكان النصر من نصيب باديس الذي طال حكمه وتميز بالقسوة وسفك الدماء وقد "ألقى شؤون الدولة إلى وزيره اليهودي، ابن النغرالة* وإلى نفوذ النساء في القصر"[3] وهذا ما أدى إلى تدهور الأوضاع، فثار أهل غرناطة على اليهود وقتلوا منهم الكثير، ولما توفي باديس "خلفه حفيده عبد الله بن بلقين صاحب المذكرات وتجددت المنافسة بينه وبين

---

[1] إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص14.

[2] المرجع نفسه : ص11.

* ابن النغرالة : هو أبو إبراهيم إسماعيل بن نغريلة اليهودي كاتب ووزير حبوس بن ماكسن، علت منزلته في عهد باديس، وقد فضله على وزرائه، كما كان ابن النغريلة من أهل الشعر والأدب.

[3] المرجع نفسه : ص 12.

ابن عباد إلى أن سقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة، واتفق أمراء الأندلس على الاستعانة بالمرابطين" [1]، وقد سقطت دولة بنو زيري على يد المرابطين سنة 483هـــ.

ب. بنو الأفطس أصحاب بطليوس (413هـــ- 487هـــ) :

وهي إمارة حكمها البربر ممثلين بالمظفر وابنه المتوكل* وقد اشتبك أصحابها مع بني عباد في معارك متعددة من جهة، ومع بني ذي النون من جهة أخرى وبالرغم من ذلك فقد حظيت بطليوس في عهد المتوكل بالاستقرار النوعي إلى غاية سقوطها على يد المرابطين سنة 487هـــ.

ج. بنو ذي النون في طليطلة (427هـــ- 487هـــ) :

نشأت مملكة طليطلة عام 427هـــ بقيادة الأمير إسماعيل بن ذي النون، وهي من الممالك المواجهة لحدود الممالك الإسبانية، ومن ثم كان موقعها هاما لمن يستولي عليها، وقد تولى حكمها بعد إسماعيل" ابنه يحي المأمون الذي طال حكمه، وكان المأمون على نزاع دائم مع بني عباد أصحاب إشبيلية وبني هود أصحاب سرقسطة" [2] وقد استولى ألفونسو السادس على طليطلة وبهذا خرجت من حظيرة الدولة الأندلسية إلى الأبد.

3. دول الموالي :

أ. بنو جَهْوَرْ في قرطبة (422هـــ- 463هـــ) :

وهي الإمارة التي عاصرت الفتنة وتأرجحت بعدها حتى سنة 422هـــ، حيث أعلنت الدولة الجهورية بقيادة أبي الحزم بن جهور وذلك باختيار من أهل قرطبة، وقد كان

---

[1] إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص12.

* المتوكل : هو المتوكل بن المظفر خلف أخيه يحي بحكم بطليوس، وقد كان يشبه أباه في العلم والأدب، وقد دام حكمه إلى أن خلعه المرابطون وتم قتله.

[2] أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي، (ط4)، مكتبة الإيمان، القاهرة، 1975م، ص 136.

متفهما ذكيا، وقامت سياسته على التآلف والمودة دون الحاجة إلى الحرب، ولما توفي (435هـــ) خلفه ابنه أبو الوليد بن جهور فسار على سيرة أبيه، وبين أطماع بني عباد وبني ذي النون في قرطبة سقطت المدينة في يد العباديين، وزالت دولة بني جهور بعد أربعين سنة من الحكم"[1]وقد بقيت قرطبة في يد العباديين إلى غاية سقوط دولتهم على يد المرابطين.

ب. موالي العامرية :

كان حكمهم في شرق الأندلس أي في ألمرية ومرسية وبلنسية ودانية وما والاها من جزائر" فكانت ألمرية ومرسية تحت حكم خيران العامري (415هـــ- 419هـــ) ثم خلفه فيها زهير العامري " [2] وبعد زهير انشطرت المدينتان في دوليتين مستقلتين عن بعضهما البعض" فأصبحت ألمرية من نصيب بني صمادح (433هـــ-484هـــ) وأصبحت مرسية من نصيب بني طاهر(429هـــ-471هـــ)، أما دانية والجزائر فكانت لمجاهد العامري [3] ولكن بنو هو د استطاعوا ضمها إلى ملكهم حت ى سقطت في يد المرابطين سنة484هـــ، وأما بلنسية فقد شهدت "عددا من الأمراء توالوا عليها إلى أن ثار فيها القاضي ابن جحاف* (485هـــ- 487هـــ) ومنه استولى عليها المرابطون" [4] وهذه تعد نظرة سريعة شديدة الإيجاز، ولكنها تصور لنا جانب من الخلافات بين أولئك الأمراء والحكام وتبين لنا سياستهم المتبعة في الحكم والتي أدت إلى إضعاف الأندلس وجعلها معبرا لقوى الشمال والجنوب المتمثلة في النصارى والمغاربة.

---

[1] إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص 14.

[2] المرجع نفسه : ص11.

[3] المرجع نفسه : ص11.

* ابن جحاف : هو القاضي أبو أحمد جعفر بن جحاف تولى أمر بلنسية سنة 485هـــ، ولكن القنبيطور لم يلبث أن ضرب حولها حصار وسيطر عليها سنة 488هـــ، وقتل ابن جحاف حرقا بالنار في العام نفسه.

[4] المرجع نفسه : ص11.

ويلاحظ على هذه الإمارات جميعا أنه ليس هناك تفاوت كبير فيما تنتهجه من نظم سياسية أو إدارية، بل أننا نجد أن هذه النظم هي نفسها تطبق في كل دولة من دول الطوائف بدون زيادة أو نقصان" فالسيد فيها ذو سلطان مطلق يميل في أغلب الأحيان إلى الاستبداد والاستهانة بالدماء وانتهاز الفرص، مع ميل إلى الاستكثار من أسباب الترف وضروب العمران، وهو يعتمد على وزير أو وزراء من طبقة الكتاب أو الفقهاء، وللوزير الكاتب مكانة هامة في الدولة لأنه اللسان المعبر عن سياستها وعلاقاتها بأسلوب لبق أو قوي"[1] وأما العلاقة بين السيد والشعب "فهي علاقة الجباية نظرا لحاجته إلى المال لإعداد الجند وغير ذلك من شؤون دولته وأسباب ترفه"[2].

ولا يشد عن هذه النظم " إلا بعض نزعات فردية كانت تنزع بصاحبها إلى العدل والمسالمة وإنصاف الرعية " [3] وخير مثال على ذلك النظام الذي استحدثه أبو الحزم بن جهور في قرطبة والذي يقوم على مبدأ الجماعة، ويمكن القول عليه أنه النظام الديمقراطي الوحيد في ذلك العصر، وقد كان المجتمع الأندلسي في ذلك العصر يتكون من ثلاث طبقات لعبت كل واحدة منها دورا بارزا وفعالا في الأحداث والتغيرات السياسي ة التي حصلت في ذلك العهد، وتتمثل هذه الطبقات في :

1. الطبقة الأرستقراطية أو الخاصة :

وتعتبر هذه الطبقة أغنى طبقات المجتمع وأكثرها ثراء، وتتكون من أفراد الأسرة الحاكمة، وكبار الملاكين والأغنياء، ففي ألمرية مثلا انحصرت في العنصر العربي حيث "انفردت الأرستقراطية العربية باقتسام أرض المرية وسيطرت على معظمها عن طريق

---

(1) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص15.

(2) المرجع نفسه : ص15.

(3) المرجع نفسه : ص15.

السلطة، فالمعتصم بن صمادح كان يمثل قمة الثراء والملكية " [1] وأما في غرناطة فإن أسرة بن زيري البربرية كانت هي التي تمثل قمة الهرم من حيث الثراء والاقطاعات ويلاحظ على هذه الطبقة أن معظم أفرادها كانوا يميلون إلى الترف والاسترخاء والعبث وينغمسون في حياة اللهو المجون والغناء، ولكن وبفضل الثراء الفاحش الذي تتمتع به فإن هذه الطبقة استطاعت بسط نفوذها السياسي والإداري والاقتصادي في الأندلس، وهذا ما أدى إلى انتشار الفساد والتبذير في ذلك العصر، وقد أورد لن ا المقري صورة من صور ذلك الفساد، حيث نقل إلينا ما فعله المعتمد بن عباد لزوجته الرميكية* التي "رأت الناس يمشون في الطين في يوم مطر، فأحبت أن تفعل مثلهم، فأمر المعتمد خدامه فسحقت أشياء من الطيب والعنبر والمسك والكافور ونثرت في ساحة القصر وصب فيها ماء الورد وخاضت فيه مع الجواري" [2] وقد بذر المعتمد في ذلك أموالا لا يعلمها إلا الله، وكان الأجدر به أن ينفقها على عامة الشعب، ويلاحظ أن صور التبذير هذه نجدها تتكرر في كل بلاد الأندلس في ذلك العصر، وخير دليل على ذلك القصور والحدائق التي شيدها ملوك الطوائف في كل أنحاء الأندلس وأنفقت فيها أموال طائلة كانت تكفي لجعل كل أهل الأندلس أغنياء.

2. طبقـــة العامـــة :

العامة هو اللفظ الأندلسي الذي يطلق على الأغلبية الأقل امتيازا، وهي عكس الخاصة التي تتميز بالثراء الفاحش وتنقسم هذه الطبقة إلى :

---

[1] مريم قاسم الطويل : مملكة ألمرية في عهد المعتصم بن صمادح (443هـ - 484هـ، 1031م- 1091م)، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1994م، ص81.

* الرميكية : وهي اعتماد وتعرف بالسيدة الكبرى ، ولقبت بالريميكية نسبة لمولاها ريميك بن حجاج، ومنه اشترها المعتمد بن عباد ويرى البعض أنها هي التي دفعت المعتمد لقتل وزيره ابن عمار وذلك لأنه هجاها.

[2] أحمد بن محمد المقري التلمساني : نفح الطيب من عصن الأندلس الرطيب، تح : إحسان عباس، مجلد 4، (دط)، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968، ص ص 272، 273.

أ. الطبقـــة الوســـطى :

وتظم هذه الطبقة "التجار الكبار والمتوسطين، وأصحاب الأعمال والمشاريع الصناعية وموظفي الدولة التابعين والملاكين الصغار "[1] وقد كانوا يتمتعون بمستوى اجتماعي متوسط "وقد اهتمت هذه الطبقة بالعمل الصناعي والتجاري (...) وظلت شديدة الارتباط بالطبقة الأرستقراطية من أجل الحفاظ على مصالحها" [2] فأفراد هذه الطبقة لم تسمح لهم الظروف بالحصول على ثروات ضخمة كما هي حال طبقة الخاصة ولذلك كانوا " يعملون على حماية ما يملكون ويسعون إلى توسيع ثرائهم على حساب غيرهم من العامة، وذلك من أجل الوصول إلى مستوى الطبقة الأولى"[3].

ب. الطبقـــة السفـــلى :

وهي أكثر الطبقات فقرا في المجتمع ويمثلون السواد الأعظم منه، وقد كانوا يعانون من الظلم والتعسف الذي تمارسه الطبقة الأرستقراطية ومن الضرائب الباهظة التي كان لها مفعول كبيـــر في تردي أوضاعهـــم وبروز العديـــد من الظواهر الخطيرة كالسرقة،التي لم تعد محصورة في مدن الأندلس فقط بل امتدت إلى أريافها أيضا،ويضاف إلى ذلك ظاهرة النزوح وذلك بحثا عن حياة أحسن وهروبا من الاضطهاد والظلم الذي يمارسه ملوك الطوائف، ولذلك كانـــت هذه الطبقة أكثـــر استعدادا " للثورة من غيرها وأكثرها تأثرا بالأزمات والحروب والقحط والجفاف"[4].

---

[1] مريم قاسم الطويل : مملكة ألمرية في عهد المعتصم بن صمادح، ص83.

[2] المرجع نفسه : ص83.

[3] المرجع نفسه : ص84.

[4] المرجع نفسه : ص84.

* الصقالبة : وتطلق هذه الكلمة في الأندلس على الأسرى والأجانب الذين يخدمون في البطانة في القصر، حيث كانوا مزيج من النصارى والإسبان والألمان والفرنسيون واللومبارديون والإيطاليون.

3. طبقـــة العبيـــد :

وتعتبر من الفئات الهامة المكونة للمجتمع الأندلسي في ذلك العصر، فلا تخلوا دار ثري في الأندلس من العبيد، وكان عدد العبيد يتوقف على عامل الثراء والحاجة إليهم وهم عادة يجلبون من بلاد بعيدة وجلهم من السود الإفريقيين أو من أواسط أوربا ويطلق عليهم الصقالبة.

ومن الأعمال التي كان يمارسها العبيد في ذلك العصر – عصر ملوك الطوائف– الخدمة المنزلية، كخدمة البيت المتمثلة في الطبخ وغسل الثياب والغزل والنسيج، ويلاحظ على هذه الطبقة أنها استطاعت أن تلعب دورا هاما في مساندة السلطة الأرستقراطية في توطيد نفوذها، وقد ارتقى هؤلاء العبيد إلى أعلى المناصب السياسية في الأندلس مثل فتيان العامرية وغيرهم، ومنهم من استقل وسيطر على الكثير من المدن الأندلسية مثل زهير ومجاهد العامريان.

ومن خلال هذه النظرة السريعة والموجزة للتقسيم الطبقي للمجتمع الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، نلاحظ أن الطبقة الأرستقراطية سيطرت على كل مصادر الثراء والثروة وتمكنت من فرض سيطرتها على طبقة العامة والعبيد، بالرغم من أنهم يمثلون الأغلبية الساحقة، وهذا ما أدى إلى ظهور الكثير من الظواهر السلبية في المجتمع مثل السرقة وشرب الخمر والتغزل بالغلمان واللهو والمجون.

ومن الظواهر التي يجب التوقف عندها في هذا العصر، ظاهرة السجون وذلك لأنها كانت تمثل العنوان البارز في عهد ملوك الطوائف، فكما تنافس هؤلاء الأمراء في بناء القصور تنافسوا أيضا في بناء السجون، وذلك من أجل التخلص من خصومهم وكل من يفكر في القيام بأي تمرد يهدد سلطتهم وملكهم، ويرجع الكثير من الباحثين سبب كثرة السجناء في هذا العصر إلى أسباب سياسية بالدرجة الأولى، وذلك لأن أمراء وملوك الأندلس لم يكونوا "يتسامحون مع المعارضة، ليس بالحبس والتعذيب فحسب وإنما كثيرا

ما لجئوا إلى الخلاص النهائي من الأعداء في أغلب الأحيان" [1]، فمن السهل جدا أن يتهم أي شخص في عصر الملوك الطوائف بالخيانة والتآمر على قلب نظام الحكم ويرمى به داخل السجن، الذي قد يبقى به طول حياته، أو قد يكون سبب السجن سوء التصرف، كأن يقوم الشاعر بهجاء الحاكم أو زوجته أو أحد أفراد أسرته.

ويضاف إلى ذلك أن الحروب المستمرة بين ملوك الطوائف لم تخلف الكثير من القتلى فقط، بل خلفت أيضا عددا لا يحصى من الأسرى والسجناء، وقد يقع الأمير نفسه في يد الأعداء فيرمى به في السجن ولا يغادره حتى وفاته، وتأتي بعد الأسباب السياسية أسباب دينية مثل الزندقة والمجون والاستخفاف بأمور الدين، وذلك بسبب الحياة التي كان يعيشوها الأندلسيين في هـــذا العصر والتـــي تميزت بالحريـــة وانتشار الغناء واللهو والجواري، ويضاف إلى هـــذه الأسباب أسباب أخرى كالجرائم المتعلقة بالقتل والسرقة والزنا وغير ذلك من الانحرافات التي عرفها المجتمع الأندلسي في ذلك العصر.

ولم يقتصر السجن في هذا العصر على المجرمين واللصوص فقط، بل أنه شمل حتى الأمراء والوزراء والشعراء والأدباء والفقهاء، حيث تعرض الكثير من شعراء الأندلس لمحنة السجن، بالرغم من كون هذا العصر يمثل العصر الذهبي للأدب الأندلسي وذلك راجع إلى المكانة التي أصبح يحتلها الشاعر، فهو لم يعد يكتفي بقول الشعر من أجل مدح الملوك والحصول على العطاء والهدايا فقط، كما كان يحصل في العصور السابقة بل أصبح يسعى إلى أعلى المناصب السياسية مثل القضاء والوزارة وغيرها، وهذه الوظيفة الجديدة التي أصبح يقوم بها الشاعر هي في الواقع ذات وجهين، الوجه الأول إيجابي حيث أصبح الشاعر في مركز القرار والسلطة ويتحكم في أمور الدولة، ولا يحدث شيء إلا من خلال استشارته وأخذ الإذن منه، فكم من اتفاقية في عصر الطوائف أبرمت بسبب الشعراء وكم من اتفاقية ألغيت بسببهم، فالشاعـــر في هذا العصـــر هو الذي يعقد

---

[1] سكينة قدور : الحبسيات في الشعر العربي، أطروحة دكتوراه دولة في الأدب العربي الحديث، مخطوط، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006م- 2007م، ص51.

التحالفات ويقوم بالسفارة بين ملكه وبقية الملوك، فهو يستطيع أن ينهي الحرب وبالمقابل يستطيع أن يشعلها.

فقد أصبح الشاعر في هذا العصر بمثابة الملك غير المتوج الذي يدير الدولة في الخفاء، وأما الوجه الثاني فهو سلبي وذلك لأن الوظيفة التي أصبح يقوم بها الشاعر، كانت مصدر قلق لملوك الطوائف في هذا العصر، وذلك لأن ملكهم أصبح في خطر ومحل تهديد من الشعراء، فسعى الملوك للتخلص من الشعراء وسلطتهم وذلك برميهم في السجن لأتفه الأسباب، وخير مثال على ذلك الشاعر والوزير ابن عمار الذي اتهمه المعتمد بن عباد بهجاء زوجته وسجنه ثم قتله، وكذلك الشاعر ذو الوزارتي ن ابن زيدون حيث اتهمه ابن جهور بسرقة بعض العقارات ورمى به في السجن، ولكن السبب الحقيقي لسجنهما في الواقع هو المكانة التي أصبح يحتلانها والتي كانت بمثابة تهديد للمعتمد وابن جهور وبالإضافة إلى الشاعرين ابن عمار وابن زيدون فإننا نجد الكثير من شعراء السجون في هذا العصر مثل : ابن شهيد وابن حزم وابن الغصن الحجاري والمعتمد بن عباد وغيرهم.

ثالثا : الحياة الأدبية في عصر ملوك الطوائف

بالرغم من انقسام الأندلس في عصر ملوك الطوائف إلى إمارات وطوائف متنازعة وما عرفته من حيـــاة الترف والبذخ واللهـــو، إلا أن هذا العصر يعد من أزهى عصور الشعر والأدب، فهو "يعتبر الفترة الزمنية الذهبية بالنسبة للأدب الأندلسي الذي بلغ فيه نضجه وازدهر ازدهارا لم تعرفه العصور السابقة لهذا العصر" [1]، وقد ساهمت عدة عوامل في ازدهار الحركة الأدبية في الأندلس في هذا العصر، ومن هذه العوامل نذكر :

[1] فضيلة خلفاوي : الزهر والزهريات في الشعر الأندلسي، عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير، مخطوط، جامعة الإسكندرية، مصر، 1983م، ص6.

1. التنافس بين ملوك الطوائف المختلفة :

لم يقتصر التنافس بين ملوك الطوائف على السلطة والمال والتوسع فحسب، بل شمـــل العلـــوم والآداب، حيث اهتم كـــل واحد منهم بجمع أكبـــر عدد ممكن من الأدباء والشعراء في بلاطه وذلك ليفاخر بهم وينافس جيرانه، " فقد كان من أعظم مباهاة ملوك الطوائف أن فلانا العالم عند فلان الملك، وفلانًا الشاعر مختص بفلان الملك "[1] وهذا ما جعل الشعراء والأدباء هم المستفيد الأكبر من هذا التنافس، حيث "مضوا يقطعون الأندلس طولا وعرضا وينتجعون قصـــور الأمراء حيث يضفرون بالمأوى والصلاة ويحضرون مجالس الحكام، وتدرج أسمائهم في الدواوين وتقرر له م الأرزاق"[2] ، وقد أدى ذلك إلى رواج سوق الأدب وزيادة اهتمام الأدباء وحرصهم على تجويد كتاباتهم وإبداعاتهم لتكون في مستوى هؤلاء الملوك.

2. كثرة الممالك والدويلات :

ممـــا أدى إلـــى ازدياد فرص الشعـــراء والأدباء للالتحاق ببلاط أحد الملوك أو الأمراء وجعلهم يضعون شروطا مسبقة على الممدوح أن يلتزم بها مقابل مدحه.

3. حاجة هذه الممالك إلى الشعراء:

وذلك لكـــي"يحفظو لها ما كانـــوا يعدونه إنجازات لها ويدافعون عنها في وجه خصومها، وحاجتها كذلك إلى كتاب لدواوين الخراج والجند والرسائل وسواها "[3].

4. كون بعض الأسر الحاكمة من أهل الفصاحة والبلاغة والأدب :

---

[1] مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب، ج2، (ط1)، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، 1997م، ص251.

[2] الطاهر أحمد مكي : مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن، (ط1)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1994م، ص81.

[3] صلاح جرار: قراءات في الشعر الأندلسي، (ط2)، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، 2009م، ص31.

حيث كان لأفراد هذه الأسر" مشاركة في نظم الشعر وكتابة التوقيعات والأجوبة البليغة وغيرها، كما هو شأن بني عباد في إشبيلية وبني الأفطس في بطليوس والعامريين في دانية والجزر الشرقية "[1].

5. **إدراك ملوك الطوائف بأن أمرهم لن يدوم طويلا:**

ومن أجل ذلك مالوا إلى" اللهو والملذات والترف والمجون وبناء القصور واقتناء الجواري، مما أوجد مجالات عديدة لقول الشعر الذي يصف هذه المظاهر الاجتماعية أو يتأثر بها "[2].

6. **الأحداث السياسية الخطيرة التي شهدتها الأندلس:**

ومن هذه الأحداث "تعاظم خطر قشتالة، واستغراق ملوك الطوائف في نزاعاتهم وضعفهم، ثم دفعهم الجزية لملك قشتالة ألفونسو السادس، ثم سقوط عدد من المدن الأندلسية "[3] وكل هذه الأحداث ساهمت في دفع الشعراء نحو موضوع النقد السياسي ورثاء المدن والحث على الوحدة.

وقد بلغ النتاج الأدبي في عصر ملوك الطوائف مبلغا كبيرا في المقدار وفي البراعة والتفنن والجودة لم يبلغها في العصور السابقة لهذا العصر.

وذلك بفضل مجموعة كبيرة من الشعراء والأدباء المتميزين الذين ساهموا من خلال إبداعاتهم في جعل الأدب الأندلسي يحتل الصدارة في ذلك العصر، ومن هؤلاء نذكر:

ابن زيدون، ابن حزم الأندلســـي، ابن رشيــق القيروانـــي، ابن اللبانة، الأعمى التطيلي، ابن عبـــدون، الفتـــح بن خاقـــان، ابن حمديس الصقلي، ابـــن وهبـــون، ابن

---

[1] صلاح جرار: قراءات في الشعر الأندلسي، ص ص 31، 32.

[2] المرجع نفسه : ص 32.

[3] المرجع نفسه : ص 32.

عمار، المعتمد بن عباد، عبد الملك بن غصن الحجاري، أبو بكر عبادة بن ماء السماء وغيرهم.

كما كان للمرأة مساهمة فعالة في الحركة الشعرية في هذا العصر، حيث يعتبر الشعر النسوي من أهم الميزات التي اتسمت بها الساحة الأدبية في عصـــر الطوائف، فقد ظهرت الكثير مـــن الشاعرات اللواتي غـــلب على شعـــرهن، الغـــزل والهجاء ووصف الطبيعة، كما طغت الإباحية والمجون على غزلهن، وانتشر بينه ن الغزل المؤنث، ومن هؤلاء الشاعرات نجد : ولادة بنت المستكفي التي مثلت الأدب النسوي الأرستقراط ي ونزهون بنت القلاعي الغرناطية وبثينة بنت المعتمد بن عباد.

وقد اهتم الأندلسيون بمختلف الأغراض الشعرية وأبدعوا فيها وذلك لأن الأرضية كانت خصبة جدا للإبداع الشعـــري ، ومن أهم هذه الأغراض : المدح والحماسة والغزل والرثاء والهجاء والزهد وشعر الحنين وشعر الطبيعة وشعر السجون وشعر الخمريات وفن الموشحات.

فرغم الاضطرابات السياسية التي شهدتها الأندلس في هذا العصر، إلا أنه يعد من أزهى عصور الشعر والأدب، حيث بلغ فيه الأدب الأندلسي مرحلة النضج وصار مقصدا للباحثين والدارسين، بما يحمله من معاني وعواطف وأحاسيس صادقة، كانت مرآة عاكسة لذلك العصر.

الفصـــل الأول

شعر السجون

أولا : مفهوم السجن.

ثانيا : تطور شعر السجون.

ثالثا : موقف الشاعر السجين من السلطان.

عرف الإنسان السجن منذ القديم، وذلك لحاجته الملحة والماسة إليه، وقد تنوعت أسماء السجن وأماكنه وأنواع التعذيب التي تمارس به من عصر إلى آخر، حيث عرفت السجون عند كل من المصريين القدامى واليونان والرومان والصينيين والعراقيين والفرس، كما عرفها العرب في العصر الجاهلي وصـــدر الإســـلام والعصـــر الأمـــوي والعباسي، وصولا إلى الأندلس التي احتلت السجون بها مكانة هامة، وكل هذا الارتباط بين الإنسان والسجن يدفعنا إلى طرح العديد من الأسئلة ومن بينها :

ما مفهـــوم السجـــن؟ وماذا نعني بشعـــر السجون؟ وما هي العلاقة بين الشعر والسجن؟

أولا : مفهوم السجن

1. لغـــــة :

جاء في لسان العرب لابن منظور: " السجنُ : الحبسُ، والسجنُ بالفتح سجنَه يَسْجُنُه سَجْنًا أي حبسه والسجْنُ المحبسُ، قال تعالى:« رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » سورة يوسف [الآية 33]، فمن كسر السين فهو المحبس، وهو اسم، ومن فتح السين فهو مصدر سَجَنَهُ سِجْنًا والسَجَّانُ: صاحِبُ السِّجْنِ" [1].

وقد وردت لفظة السجن في المعاجم العربية بمعاني مختلفة منها :

- **الحَبْسُ :** "حبس بمعنى حَبَسَهُ أمْسَكَهُ عن وجْهِهِ والحَبْسُ ضد التخليَة وتَحبِسُ عن كذا أيْ حَبَسَ نَفْسَهُ على ذلِكَ"[2].

---

[1] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، مادة سجن، مجلد 3، (دط)، دار المعارف، القاهرة، (دت)، ص 1947.

[2] المصدر نفسه : مادة حبس، ص 752.

- **القصر** : "هو الحَبْسِ لأنك إذا بلَغتْ الغايَة حبستْكَ، قصر الشيء يقصره قصرا حَبَسَهُ"[1].

- **الأســـر** : "أسَرَهُ يَأْسُرُهُ أسْرا وإسارَة شده بالإيسارِ، والإيسارُ : القيْدُ ويكونُ حَبْلَ الكِتافِ، ومنه سمَي الأسير وكانوا يشُدونَهُ بالقِد، فسُمَي كُلُ أخيدٍ أسيرًا وإنْ لم يُشَدَّ بِهِ، يقَالُ أَسَرْتُ الرجُلَ أسْرًا وإسارًا، فَهُو أسِيرٌ ومأسُورٌ، والجَمْعُ أسْرَى وأسَارَى"[2].

- **الاعتقال** : جاء في لسان العرب : "عَقَلَ البَعيرَ يعَقلُهُ عَقْلاً وعَقَلَهُ واعْتَقَلَهُ : ثَنَى وَظيفَهُ مَعَ ذِرَاعِهِ وشَدَّهمَا جَمَيعًا في وَسَطِ الذراعِ، وكذلِك النَاقَةُ، وذلك الحَبلُ هُوَ العِقَالُ (...) واعْتَقَلَ لِسانَهُ : امْتَسَكَ، قال الأصمعي : مَرِضَ فُلانٌ فاعْتُقِلَ لِسانَهُ، إذا لم يَقْدِرْ عَلَى الكَلامِ (...) واعْتُقِلَ : حُبِسَ وعَقَلَهُ عن حاجَتِهِ يَعْقِلُهُ، وعَقَلَهُ وتَعَقَلَه، واعْتَقَلَهُ حَبَسَهُ"[3].

- **الديماس** : "دَمَسَ الظَلامُ إذا اشْتَدَ ... يقال دَمَسْتُهُ، أي قَبَرْتُهُ قال أبُو زيد : دَمَسْتُهُ في الأرضِ دَمْسًا إذَا دفَنْتُهُ حيًا كان أو ميتًا، وكان لبعض الملوك حبسٌ سَمَاه دَيْمَاسًا لظُلمتهِ، والدِّيمَاسُ سجْنُ الحجاج بن يوسف"[4].

- **المُخَيْسُ** : "خَاسَ : دَلَّ والتخْسيسُ : التَدْليلُ (...) والمُخَيسُ هو سجن كان بالعراق قال ابنُ سيده : والمُخْيسُ السجن لأنه يُخيسُ المحْبُوسينَ، وهو موضع التدْليلِ وبه سُمِي سَجْنَ الحجاج مُخَيَّسًا، وقيل: هو سِجْنٌ بالكوفة بناه أمير المؤمنين علي"[5].

---

(1) ابن منظور : لسان العرب، مادة قصر، ص 3645.

(2) المصدر نفسه : مادة أسر، ص ص 77، 78.

(3) المصدر نفسه : مادة عقل، ص 3046.

(4) المصدر نفسه : مادة دمس، ص 1421.

(5) المصدر نفسه : مادة خيس، ص ص 1300، 1301.

- **الإصفاق** :"الصّفْقُ : الضربُ الذي يَسمعُ لهُ صوتٌ وكذلك التصفيقُ، (...) وصفَقَ رَأْسَه يصفِقُهُ صفقًا : ضَرَبَهُ وصفَقَهُ بالسيفِ إذا ضَرَبَهُ (...) وأصْفَقُوا عَلَى كَذَا، أَيْ أَطْبَقُوا عَلَيْهِ"[1].

فالإصفاق يدل على الحبس والضرب والقهر.

2. اصطلاحا :

لتحديد مفهوم السجن من الناحية الاصطلاحية لابد من الرجوع والعودة إلى القرآن الكريم، وذلك لأنه تطرق إلى هذا المصطلح في أكثر من موضع وبمعان مختلفة فقد جاءت سورة يوسف غنية بلفظة السجــن، لأن يوسف عليه السلام دخل السجن لفترة زمنية طويلة حتى أنه عليه السلام فضل البقاء فيه، « قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ...» سورة يوسف الآية 33.

وقوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ، وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» سورة يوسف الآية 24- 25.

وقوله تعالى : « قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ...» سورة يوسف الآية 32.

حيث نجــد يوسف عليه الســـلام من خلال هذه الآيات مثالا للشخصية الأمينة والعفيفة التي تفضل دخول السجن على ارتكاب الفاحشة ومعصية الله.

[1] ابن منظور : لسان العرب، مادة صفق، ص ص 2463، 2464.

وجاء في سورة المائدة: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ...» سورة المائدة الآية 35.

وقد وردت في القرآن الكريم ألفاظٌ أخـــرى بمعنى السجـــن، منها قولـــه تعالى : «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا» سورة الإنسان الآية 8.

وجاء في سورة النساء: « وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً» سورة النساء الآية 15.

ولقد كانت عقوبة الإمساك في البيـــوت في بداية الإسلام حكما على المرأة التي ثبت زناها بالبينة العادلة، فتمنع من الخروج لأن في ذلك ردعا من الوقوع في الفاحشة.

ومما سبق يتضـــح أن القـــرآن الكريم لم ينص على عقوبـــة السجن إلا في إطار قصصي لبعض الأنبياء، وأنه أخبرنا وأكد لنا معرفة الأمم السابقة لسجن واعتمادهم عليه كوسيلة من وسائل الردع وحفظ النظام والأمن والاستقرار.

ومن خلال ما جاء في القرآن الكريم من آيات تحدثت عن السجن، يمكن أن نعـــرف السجـــن بأنه "مكان اعتقـــال المحكوم عليهم بعقوبة سالبة للحرية، ولذلك يرهب الناس السجون، لأنها تحرمهم من حرية الحركة والتنقل والكلام وحرية العيش، فهي عالم خاص ونظام صارم يتجاوز حدود المعقول"[1].

فالإنسان المسجون يفقد حريته ويمنع من الحركة والتنقل ويخضع للعقاب، وقد عرف عائض القرني السجـــن بقولـــه : "السجن بيت الأحزان، ومقبرة الأحياء، ومجمع الهموم، فيه يقيد الذهن، ويحبس الضمير وتغلق نوافذ الآمال، وفي السجن ترخص الحياة

[1] علي منصوري : البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، أطروحة دكتوراه دولة في الأدب الحديث، مخطوط، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2007م- 2008م، ص137.

ويعاف البقاء ويطوف موكب الموت على القلب، ويسل الهلاك سيفه على الأعناق، في السجن تذوب المهج وتسحق الهمم، وتفتت الأكباد، ليس في السجن إلا حيطان صامتة وألواح جامدة وأبواب موصدة، صمت رهيب تكاد تختنق منه النفس، وسكوت مطبق تشرق منه الروح على البرزخ"[1]. فقد جعل عائض القرني السجن بمثابة القبر وذلك لأن كل الهموم والأحزان والمعاناة تجتمع فيه، فهو لا يترك أي أمل أو رجاء لمن يدخل إليه ويتعرض لمحنته.

ويمكن أن نعرف السجن أيضا بأنه المكان الذي: "تغيب فيه عن الأحباب والأصحاب والإخوة والخلان فلا عطف والد ولا حنان والدة، ولا أنس ابن ولا عزاء صاحب ولا سلوة محب، السجن جد صارم، فيه التجهم كله، والعبوس أوله وآخره، والكدر جميعه"[2]. حيث تعتقد وأنت في السجن أن عقارب الساعة لا تتحرك وأن الرياح ماتت وأن القمر يتوقف.

كما أن السجن يعتبر موطنًا آخـــر للإنسان، فهو في غاية الضيق، محكم السدود والقيود والإنسان المسجون قد ينال حريته، فيخرج منه وكأنه ولد من جديد، أو قد يبقى داخله إلى أن يموت ويدفن فيـــه دون أن يهتم به أحد أو يسأل عنه، فالصراع بين الإنسان والسجن هو صراع بين الحياة والمـــوت، حيث يمثل الإنسان الحياة وذلك لما يتمتع به من أحلام وآمـــال وطموحات وتطلعـــات إلى المستقبل، بينما يمثل السجن الموت لما فيه من ظلام وقيد ووحدة، وطول انتظار وصمت وعذاب ومعانات وآلام.

وعليه فإن السجن هو المكان الذي يثيـــر الخوف والرهبة، وذلك لأنه يقيد حرية الإنسان ويجعل حياته ظلاما ويبدل سعادتـــه شقاء دائما، ويجعل ليله طويلا سرمديا لا

---

[1] سليمان بن صالح الخراشي : المشاهير والسجون، (ط1)، دار ابن الأثير، المملكة العربية السعودية، 2003م، ص5.
[2] المرجع نفسه : ص5.

ينتهي من كثرة الأرق والتفكير، ليس في نفسه فقط، بل وفي عائلته وأصدقائه الذين يعانون في غيابه ويشتاقون إليه.

3. مفهوم شعر السجون :

شعر السجون هو ذلك الإبداع الذي يكتب في السجن في سياق مخصوص ومعلوم تاريخيا، وينسب هذا الإبداع أو الشعر إلى السجن. "لعلاقة السبب والمكان، لأن شرطه أن يكون الشاعـــر سجينا حقا، وينظمـــه في السجـــن لا خارجه ولعلة السجن ذاته" [1]. وأما موضوع شعر السجون فهو السجن وما يتصل به، أو الحرية والتحرر وما يتصل بهما من الظروف، ففي شعر السجون نجد أشجى التلاحين التي تهز الأفئدة الحـــرة والنفوس الأبية وذلك لأنه ينبعث "من قعر زنزانات العذاب الرهيبة ومن خلف قضبانها وأبوابها الحديدية ومن وحشتها ورهبتها وغربتها ولياليها الطويلة"[2].

وتكمن قيمة شعر السجون في أنه يعتبر أغلى الشعر قيمة وأكثره أصالة، وأقدره على تصوير التجربة التي عاناها الشاعر داخل سجنه، وذلك لأن المعاناة هي التي تولد الإبداع، فالإبداع لا ينتج عن شخص عادي يعيش في ظروف عادية، وإلا أنتج شعرا عاديا، وإنما الإبداع ثمرة مميزة تصدر عن شخص مميز يحيا ظروفا خاصة فينتج لنا شعرا خاصا مميزا.

4. العلاقة بين الشعر والسجن :

تعتبـــر العلاقة بيـــن السجـــن والشعر علاقـــة وثيقة وتكاملية، وذلك لأن الشاعر وبمجرد دخوله السجن ينقطع عن العالم الخارجي وينطوي على أحزانه، فتجتمع عنده الهموم والآلام والحنين والأشواق وتتأرجح نفسه بين الأمل والرجاء وبين القنوط واليأس

---

[1] مقران فصيح : البناء اللغوي لشعر السجون عند مفدي زكريا وأحمد الصافي النجفي، (ط1)، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 2008م، ص13.

[2] سكينة قدور: قراءات في الشعر العربي الحديث والمعاصر، (ط1)، منشورات مكتبة إقرأ، قسنطينة، الجزائر، 2012م، ص 169.

والاستسلام، فيبث كل ذلك في شعره معبرا عما يجيش في نفسه من عواطف وأحاسيس ومشاعر، وبذلك يصبح الشعر بمثابـــة معادل موضوعـــي للسجن، فهو أي الشعر يعتبر سلاحاً يحارب الشاعـــر به ويقوم من خلاله بإيصال كلمته إلى الناس، ويصور المعاناة والآلام والعذاب، فقد صور لنا الشعراء في السجن "صورا رائعة مفعمة بالحياة، ولِنَقُل أنهم انتزعوا من صدر الصخر وافْتَكُّوا من رحم الموت الحياة، إذ أقل ما يوحى به السجن احتباس الحياة وانقطاعها وتوقف نبض السجين"[1].

وبما أن الشاعـــر هـــو الوحيـــد القادر على الكـــلام في "زمن تغتال فيه الأنفاس وتحاصر الجدران كل شيء وتملأه أعين الحراس ولا يسمع إلا صدى السكون (...) هنا حيث لا يعلو غير الصمت والجدران يقول الشاعر كلمته" [2]. ويقوم بنقل تجربته وما كان ينتابه من عذاب نفسي، وبخاصة أثناء الليل حيث لا يوجد صديق أو جليس ولا ضوضاء ولا حـــركة، فيجلس – الشاعر – إلى ذاته وتستيقظ أحاسيسه ومشاعره وما يقاسيه من عذاب وألم، وعند ذلك يبدأ صراعه مع جسده وصراعه مع نفسه، ويطول هذا الصراع والأرق والسهر، ويتعذر عليه النوم وذلك لأن الليل أصبح وكأنه سرمديا لا ينتهي ويطول ترقبه لطلوع الفجر، وأثناء هذا الترقب والانتظار يقوم الشاعر بإبداع قصائد تبقى خالدة على مر الزمن، وذلك لأن الشيء لا تعرف قيمته إلا عند فقده والحرمان منه، ولذلك يقول "يانيس ريتسوس" معبرا عن إدراك الشعراء لقيمة الأشياء الحقيقية في السجن "نحن لا نرى في زنزانة السجن المعتمة السماء والبحر والأشجار والنساء ولكننا نرى في أعماقنا ونحن مغمضوا العيون وأجسادنا معذبة ضوء الأشياء الحقيقي، جوهرها ونحبها بشكل

---

[1] سكينة قدور: قراءات في الشعر العربي الحديث والمعاصر، ص ص 169، 170.

[2] محمد صالح شريف عسكري ومرتضى زارع برمي : شعر السجون في الأدب العراقي المعاصر، الأعمال الشعرية لحسن السنيد نموذجا، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية، العدد1، 2012م، ص6.

أعنف"[1]. وهذا الحـــب العنيف هو الذي يولـــد المعاني الخالدة والعواطف الصادقة والأحاسيس المرهفة.

إن الشعراء بمجرد فقدانهم لحرياتهم ودخولهم السجن، يقومون بملء ذلك الفراغ والوحدة التي يشعرون بها بشعرهم، وفي كثير من الأحيان يكون هذا الشعر أفضل من شعرهم الذي قالوه خارج السجن، بل أن هناك من الشعراء الذين لم نكن لنسمع بهم لولا دخولهم السجن وتفجر قريحتهم الشعرية في هذا المكان، وقد عبـــر عن هذه الحقيقـــة أحد المفكرين بقوله : "لا يعد حكيما من لا يعرف الظلام" [2]. فالشاعـــر لا يكتسب الحكمة ولا يعرف قيمة الوجود والأشياء إلا إذا عرف ظلام السجن ودهاليزه.

ثانيا : تطور شعر السجون

1. شعر السجون في العصر الجاهلي :

لقد كان التغاور بين القبائـــل في بلاد العرب قبل الإسلام طابعا مميزا لحياتهم إذ كان نهجا من مناهج العيش، وبسبب هذا العداء بين القبائل كان الكثير من الشعراء يقع سجينا في يد أعدائـــه، وبالإضافة إلى هذا السبب هناك أسباب أخرى أدت بالشعراء إلى السجن ومنها:

الهجاء وذلك بأن يقـــوم الشاعر بهجاء شخص معين أو قبيلة من القبائل أو أحد الملوك فيكون مصيره السجـــن والتعذيب وحتـــى القتل، وقد يتهم الشاعر كذلك بالخيانة فيرمى به في السجن، وقد كان هذا حال الكثير من الشعراء في هذا العصر وذلك بسبب الوشاية الكاذبة التي تعرضوا لها من قبل خصومهم.

---

[1] خالد النجار : سراج الرعاة، حوارات مع كتاب عالميين، (ط1)، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، 2014م، ص27.

[2] هفاف ميهوب : أدب السجون تجارب مريرة تتحول إلى أدب عظيم، مجلة البناء، تصدر عن الحزب السوري القومي الاجتماعي، عدد 430، 2009م، ص10.

ومن الشعراء الذين تعرضوا لمحنة السجن في العصر الجاهلي نجد الشاعر عبد يغوث بن وقاص الحارثي، الذي قاد قومه في مواجهة بني تميم، ولكن قومه انهزموا وتم سجنه ومما قاله في سجنه :[1]

فَيا راكِباً إِمّا عَرَضتَ فَبَلِّغَن نَداماىَ مِن نَجرانَ ألا تَلاقِيا

وَقَد عَلِمَت عَرسي مُلَيكَةُ أَنّني أنا اللَيثُ مَعدُوّاً عَلَيَّ وَعادِيا

أَقولُ وَقَد شَدّوا لِساني بِنِسعَةٍ أَمَعشَرَ تَيمٍ أَطلِقوا مِن لِسانِيا

أَمَعشَرَ تَيمٍ قَد مَلَكتُم فَأَسجِحوا فَإِنَّ أَخاكُم لَم يَكُن مِن بَوائِيا

فَإِن تَقتُلوني تَقتُلوا بِيَ سَيِّداً وَإِن تُطلِقوني تَحرُبوني بِمالِيا

تبرز سمـــة الخوف في هــذه الأبيات، وذلك لأن الشاعــر قد قالها وهو يترقب الموت، فتظهر صـــورة الفرد الخائف أمام مجتمع آخــر غير مجتمعه الذي اعتاد العيش فيه، ومن المعروف أن المَرْء في الجاهلية حين كان يخرج من حدود قبيلته يتملكه الخوف والرهبة، وعبر الشاعــر عن هذا الخوف في صور مختلفة، حيث تكلم عن قدره المحتوم وعجزه وحزنه، وذلك بعد أن كان فارسا شجاعا تهابه كل الفرسان والقبائل.

إن انتماءه إلى قومـــه «يشعره بالقــوة وبقاءَهُ وحيدا بيــن بني تميم يشعره بالخوف، فيعاني حال اغتراب شديدة وهو واقف أمام الموت، ومن ثنائية الفرد والجماعة تبرز ثنائية الحركة والسكون، فبعد الحركة الصاخبة في يوم الكلاب، يعاني القيد والأسر (السكون) إنه سكون بعد العاصفة، ولكن من خلال هذا السكون تظهر حركة صاخبة، إنه في قيده، لكنه يعلن قوته فهو الليث، وهو السيد»[2].

---

[1] واضح الصمد : السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، (ط1)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1995م، ص ص 125، 126.

[2] سمر الديوب : الثنائيات الضدية، دراسات في الشعر العربي القديم، (دط)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2009م، ص 10.

كما سجن فـــي هذا العصر أيضا الشاعر بشر بن أبي خازم، وذلك بسبب هجائه لأوس بن حارثة وأمه، فلما قبض عليه أوس وأراد قتله، نظم بشر شعرا جميلا وذلك من أجل استعطاف أوس، حيث يقول : [1]

وَإِنّي لَراجٍ مِنكَ يا أَوسُ نِعمَةً وَإِنّي لِأُخرى مِنكَ يا أَوسُ راهِبُ

فَإِنّي سَأَمحوا بِالَّذي أَنا قائِــلٌ بِهِ صادِقاً ما قُلتُ إِذ أَنا كاذِبُ

ولاشك أن الشاعر قد تملكه خوف كبير بعد وقوعه في السجن، وذلك لأنه كان يتوقع الموت في أية لحظة، فهو في عذاب نفسي مرير وهذا ما جعله يمارس النفاق، فبعد أن كان يقوم بهجاء أوس وأمه أصبح يقوم بمدح هذا الأخير ويكذب كل ما قاله من شعر في السابق.

ومن شعراء السجن أيضا نجد الشاعر البراء بن قيس، والذي عبر في شعره الذي قاله في السجن من عواطف ومشاعر جياشة اتجاه زوجته ومما قال : [2]

يا دار حذفة باللوى فالمجدل فجنوب أسنمة فقف العنصل

بل لا يغرك من حليل صالح إن لم يلاقك بعد عـــام الأول

كانت إذا غضبت علي تظلمت وإذا كرهت كلامها لم تثقل

وإذا رأت لي جنة عملت لها ومتى تعنى بعلم شيء تسأل

حيث يعبر الشاعر من داخل سجنه المعتم، عن حنينه وشوقه إلى زوجته ويعبر عن صورتها في مخيلته «صورة المرأة الحكيمة العطوف والتي تشاركه مشاعره

[1] بشر بن أبي خازم الأسدي : الديوان، شرح : مجيد طراد، (ط1)، دار الكتاب العربي ، بيروت، 1994م، ص 43.

[2] واضح الصمد : السجون وأثرها في الآداب العربية، ص ص 103، 104.

وأحاسيسه وأفراحه وأتراحه ومشاغله وهمومه وهي ليست مدعية أو مغرورة، لأنها متى اعترضها شيء تسأل عنه مستوضحة»[1].

ومما يلاحظ أن الشاعر وبسبب سجنه قد تغيرت نظرته إلى زوجته، فقد دفعه الشعور بالوحدة والبعد عن المرأة إلى تخيل زوجته بهذه المواصفات، وجعلها حكيمة وعطوف ووفية.

وأما الشاعر قيس بن مسعود فقد سجن بسبب حبه لقومه وحرصه عليهم حيث أرسل من سجنه عدة قصائد إلى قومه يحذرهم من جيوش الفرس، ويدعوهم إلى الإتحاد حيث يقول : [2]

ألا من مبلغ قومي ومن ذا يبلـــغ عن أســـير في الإوان

تطال ليلـــه وأمات حـــزنا ولا يرجوا الفكاك من المتان

ولقد توفي الشاعر في سجنه وهو متحرق على قومه يدعوهم إلى الاتحاد وإعداد العدة لمواجهة الأعداء.

كما سجن أيضا الشاعر عدي بن زيد العبادي من طرف النعمان بن المنذر وطال مكوثه في السجن، فقال مخاطبا النعمان : [3]

أتاك بأنني قد طال حبسي فلم تسأل بمسجون حريب

وما لي ناصر إلا نساء أرامل قد هلكنا من النحيب

يحاذرن الوشاة على عدي وما قرفوا عليه من الذنوب

---

[1] واضح الصمد : السجون وأثرها في الآداب العربية ، ص 104.

[2] المرجع نفسه : ص 114.

[3] عدي بن زيد العبادي : الديوان، تح : محمد جبار المعيبد، (دط)، دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، 1965م، ص40.

يقوم الشاعر في هذه الأبيات بتذكير النعمان بطول بقائه في السجن وبمعاناته، كما يقوم باستعطافه مصورا حالة أهله وما يعانونه في غيابه.

ومن الشعراء الذين تميزوا بصلابتهم وقوتهم في الأسر المهلهل بن ربيعة الذي نجده يتغزل في سجنه حيث يقول : [1]

طفلةٌ ما ابنةُ المجلِ بيضا ءُ لعوبٌ لذيذةٌ في العناق

فاذهبي ما إليكِ غيرُ بعيدٍ لا يؤاتي العناقَ منْ في الوثاق

ضربتْ نحرها إليَّ وَقالتْ يا عدياً لقدْ وقتكَ الأواقي

حيث يذكر المهلهل صفات الفتاة فهي بيضاء ولعوب لذيذة في العناق ولكنه لا يستطيع عناقها وذلك لأنه مسجون ومقيد، ومثلـــه لا يستحق العناق وذلك لأنه مهموم وحزين ويعاني من الآلام و القيود.

كما ســـُجن الشاعر المنخـــل اليشكري من طرف النعمان بن المنذر بعد أن اتهمه بزوجته المتجردة والتي كانت تتمتع بجمال خارق، مما دفع المنخل إلى التغزل بها فأخذه النعمـــان ودفـــع به إلى صاحب سجنـــه وكان يســـمى عُكب وهو من بني تغلب، فأخـــذه وعذبه، فقال المنخل يصف حاله : [2]

يطوف بي عكب في معد ويطعن بالصميلتي في قفيا

وقد كانت نهاية المنخل وطريقة قتله مجهولة، فهناك من قال أن النعمان دفنه حيا، وهناك من قال أنه أحرقه.

---

[1] مهلهل بن ربيعة : الديوان، شرح : طلال حرب، الدار العالمية، (دت)، ص 58.

[2] واضح الصمد : السجون وأثرها في الآداب العربية، ص 17.

ومن شعراء السجون في هذا العصر أيضا طرفة بن العبد الذي سجن في البحرين بأمر من الملك عمرو بن هند، فقال في سجنه: [1]

أبا منذرٍ! كانتْ غروراً صحيفتي ولم أُعطِكمْ بالطوْعِ مالي ولا عِرْضي

أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضَنا حنانَيْكَ! بعضُ الشرّ أهوَن من بعضِ

ورغم الشعر الذي قاله طرفة في سجنه، إلا أنه قتل داخل السجن في البحرين وذلك بأمر من الملك عمرو بن هند.

فالسجن في هذا العصـــر كان يمثل جزءا مهما من حياة العرب، ولذلك نجده حاضرا في شعر الشعراء الجاهليـــن مثـــل : عنترة وطرفة والمهلهل والمنخل اليشكري وغيرهم، كما أن السجن لم يكن خاضعا إلى أية شروط أو قوانين والعقوبة به كانت غير محددة بل مزاجية.

1. شعر السجون في صدر الإسلام :

لقد تعرض الكثير من الشعراء في عصر صدر الإسلام للسجن، وذلك لعدة أسباب منها الهجاء وشرب الخمر واللهو والمجون والخروج عن تعاليم الدين وغيرها من الأسباب التي جعلتهم يمكثون في هذا المكان الموحش.

ومن الشعراء الذين سجنوا نجد الحطيئة الذي قام عمر بن الخطاب بسجنه وذلك لأنه هجا الزبرقان بن بدر بقوله : [2]

دَعِ المَكارِمَ لا تَرحَل لِبُغيَتِها وَاقعُد فَإِنَّكَ أَنتَ الطاعِمُ الكاسي

فقال الحطيئة في سجنه أبياتا رقيقة يصور فيها أولاده الصغار الأشبه بصغار الطير وما يعانونه من بؤس وحرمان في غيابه : [3]

---

[1] طرفة بن العبد : الديوان، تح : عبد الرحمان المصطاوي، (ط1)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2003، ص 61.

[2] الحطيئة (جرول بن أوس) : الديوان، تح : حمد وطماس، (ط2)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2005م، ص 66.

[3] المصدر نفسه : ص 86.

* بعض الشر أهون من بعض: مثل يضرب لذى ظهور أمرين أحدهما أمض شرا من الآخر.

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مرخٍ زغبُ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجرُ

ألقيت كاسبَهم في قعر مُظلمة فاغفر، عليك سلام الله يا عمر

وقدعفا عنه عمر بعد أن سمع هذه الأبيات، على ألا يعود إلى الهجاء مرة أخرى.

كما سُجِن الشاعرُ أبو محجن الثقفي وهو من الشعراء المخضرمين، وقد كان من المعاقرين للخمر، فعاقبه عمر بن الخطاب مرارا من أجلها – الخمر – ولكنه لم ينته فنفاه إلى جزيرة ولكنه هرب والتحق بسعد بن أبي وقاص وهو يقاتل الفرس يوم القادسية فقام سعد بسجنه في حصنه، فقال أبو محجن يعبر عن حزنه وهو يسمع أخبار القتال : [1]

كفى حَزَناً أن تُطعَنَ الخيلُ بالقَنا وأُصبِحَ مَشدوداً عليَّ وَثَاقيا

إذا قُمتَ عَنّاني الحديدُ وأُغلِقَت مَصارعُ من دوني تُصِمُّ المُناديا

وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ فأصبحتُ منهم واحداً لا أخا ليا

نجد فـــي هـــذه الأبيات الكثيـــر من الثنائيات الضديـــة منها : الماضي/الحاضر القدرة/العجز، الفرد/الجماعة، حيث أن الشاعر وعلى عكس بقية الشعراء لا يجد فائدة في العودة إلى الماضي واسترجاعه، وتبدأ " الأزمة من شعور أبي محجن بأنه يعيش مشكلة لا حدود لها تتمثل في حبسه وتقييده، ومنعه من الجهاد في سبيل اللهّ، وأنه لم يستطع التخلي عن الخمر (...) و قد شعر بالاختناق لأن المجتمع والضوابط الدينية الجديدة لم تفهمه، فتولد لديه شعور مستمر بالضيق»[2].

---

[1] حسن نعيسة : شعراء وراء القضبان من الأدب السياسي، (ط1)، دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1986م، ص 52.

[2] سمر الديوب : الثنائيات الضدية، ص ص 12، 13.

وفي عهد عثمان بن عفان، سجن الشاعر ضابئ بن الحارث البرجمي والذي يقول في الشكوى من السجن : [1]

مَنْ يَكُ أَمْسَى بالمدينةِ رَحْلُهُ فإنِّــي وَقيَّارٌ بهَا لغَرِيــبُ

فلا تَجْزَعَنْ قَيَّارُ مِن حَبْسِ ليلةٍ قَضِيَّةَ ما يُقْضَى لنَا فَنؤُوبُ

يلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر يعاني من غربة مكانية وهــو في سجن عثمان ابن عفــان، ولذلك يلجــأ الشاعــر إلى استخدام القنــاع الرامز ليرمز للعلاقة بينه وبين السجن، والقناع في هذين البيتين هو فرسه (قيار)، حيث لا يلبث أن يقوم بإسقاط مشاعره عليه، فيحاول «أن يقوي من عزيمة فرسه ويشاركه بحوار ينم على مشاعر الحزن في نفس الفرس، ومشاعر الجلد والتصبر في نفس الشاعر، والحقيقة أنه يسقط ما في نفسه على هذا الفرس، فقد غدا قناعا رامزا للشكوى من العلاقة بالمكان وما حواره معه وأنسنته إلا دليل على تحميله مشاعره هو»[2].

ومن الشعراء الذين سجنوا في هذا العصر أيضا بسبب الهجاء نجد عبد الرحمان ابن حنبل، الــذي هجا الخليفة عثمان بن عفــان لأنه أعطى مروان بن الحكم أكثر مما يستحق في إفريقية، فسجنه عثمان في حصن القموص – جبل بخيبر – فقال يناشد علي ابن أبي طالب من أجل الشفاعة له : [3]

إلى الله أشكو لا إلى الناس ماعدا أبا حســن غلا شديــدا أكابده

بخيبر في قعر القموص كأنــها جوانب قبر أعمق اللحد لا حده

---

[1] عبد الحميد المعيني : شعر بني تميم في العصر الجاهلي، (دط)، منشورات نادي القصيم الأدبي، بريدة، السعودية، 1982م، ص 369.

[2] سمر الديوب : الثنائيات الضدية، دراسة في الشعر العربي القديم، ص 55.

[3] واضح الصمد : السجون وأثرها في الآداب العربية، ص 35.

فلما سمع علي بن أبي طالب شعره، توسط له لدى عثمان الذي عفا عنه وأخرجه من السجن.

وإذا انتقلنا إلى عصر خلافة علي بن أبي طالب، فإننا نجد العديد من الشعراء الذين سجنوا في عصره ومن هؤلاء الشاعر الأصبغ بن ضرار الأزدي، وهو من شعراء أهل الشام، وقد سجنه مالك بن الأشتر وشد وثاقه ليقوم بقتله في الصباح، فأنشد الأصبغ قائلا : [1]

ألا ليتَ هذا الليلَ أصبح سَرْمَدًا على الناسِ لا يأتيهمُ بِنَهَـــــــارِ

يكونُ كـذا حتى القيامة إنَّنِـي أحاذرُ في الاصـباح يَومَ بَوارِي

فيا ليلُ أطْبِقْ، إنَّ في الليلِ راحةً وفي الصُّبْحِ قتلي أو فَكَاكُ أسَارِي

فلما سمع الأشتر هذه الأبيات، أخذه إلى علي بن أبي طالب الذي عفا عنه وأطلق سراحه.

ومما يلاحظ في صدر الإسلام أن عقوبة السجن لم تكن محددة، حيث أن السجين قد يمكث في سجنه لمدة قصيرة ثم يغادره وقد يبقى فيه إلى أن يغادره إلى قبره مباشرة كما أن الخلفاء الراشدين قد اهتموا بالسجن وعملوا على تطويره وتحسين ظروف المساجين به.

3. شعر السجون في العصر الأموي :

لقد مثل العصر الأموي بما فيه من أحداث سياسية وصراعات وخصومات العصر الذهبي للسجون، حيث انتشرت في جميع أنحاء الخلافة الأموية وتنوعت أشكالها والأحكام الصادرة بها، كما أن عددها كان كبيرًا جدا.

وتنوعت أسباب السجن في العصر الأموي ومن أهمها :

---

[1] واضح الصمد : السجون وأثرها في الآداب العربية، ص 37.

الأسباب السياسية :

وذلك لأن الأمويين عدوا مغتصبين للحكم، فكانوا يصارعون قوى مختلفة محيطة بهم من كل جانب وتسعى إلى أخــذ الخلافة منهــم مثــل : الشيعة والخوارج وأصحاب المذاهب، وحتى داخل البيت الأموي كان الصراع على أشده من أجل السلطة، وهذا ما دفع الخلفاء الأمويين إلى التخلص من كل خصومهم ورميهم في السجون.

الأسباب الدينية :

وتتمثل في الخروج عن تعاليم الديــن، وانتشار اللهــو والمجون وشرب الخمر والزنا والقتل والسرقة وغيرها من الأمور التي كانت تؤدي بصاحبها إلى السجن.

وقد تعرض الكثير من الشعراء في هذا العصر إلى عقوبة السجن ورمي بهم في أشهر السجون الأموية، وذلك مــن أجل تعذيبهم والتنكيل بهم مثل: سجن الديماس ودوار وسجن الخضراء باليمامة وسجــن عارم بمكة وسجن مرج عذراء بدمشق وغيرها من السجون، وبسبب هذه الأوضاع التي عاشها الشعراء الأمويين في السجن، فإنهم لم يتركوا هما من هموم الحياة إلا وقد وقفوا عليه، وكل شيء كان محيطا بهم في السجن إلا وذكروه، فقد ذكــروا القيود التي أثقلت خطواتهم وذكروا السجان وملامح وجهه القاسية وشــدة قسوته عليهــم، وشَكُوا من أبواب السجــن الموصدة والتي أوصدت حتــى دون خيالاتهم، فالحبيبة الطروق التي كانت تطرقهم كل يوم امتنعت عنهم في السجن لما هم فيه من قسوة ومعاناة.

ومن الشعراء الذين تعرضوا لمحنة السجــن في هذا العصر الشاعر القتال الكلابي، وقد كان من اللصوص، وقصة تشرده ترويها كتب الأدب، إذ أنه قتل ابن عمه الذي منعه من زيارة حبيبته، وهرب بعد هذه الحادثة، إلى أن قبض عليه ورُمي به في

السجن، وكان السجـــان يعامله معاملـــة قاسية، فقام بقتله والهرب من السجن، وفي ذلك يقـــول : [1]

ولما رأيت الباب قد حيل دونه وخفت لحاقا من كتاب مؤجل*

إذا قلت: رفهني من السجن ساعة تدارك بها نعمى علي وأفضل

يشد وثاقـــي عابســـا ويتلنـــي إلى حلقات في عمود مرمـــل

أقول له والسيف يعصب رأسه أنا ابن أبي أسماء غير التنحل*

تركتُ عتاقَ الطير تجل حوله على* عدواء كالحوار المجدل

فالقتّال الكلابي يشتكي في هذه الأبيات من معاملة السجان له، ويبين لنا أنه لما وصلت هـــذه المعاملة إلى الحـــد الذي لا يطـــاق، كان رد فعلـــه قويا وأفقد السجان حياته، ويصور لنا الشاعر في البيت الثاني العمود (المرمل) الملطخ بالدماء، وذلك دليل على كثرة التعذيب الذي ينال السجين مما يؤدي إلى بقاء الدماء على حلقات العمود.

كما سجن في هذا العصر أيضا جحدر بن معاوية وهو من الشعراء اللصوص وكان يقطع الطريق وينهب الأموال، وقد سجن في سجن دوار وفي ذلك يقول : [2]

إِنّي دَعَوتـُكَ يا إِلَهَ مُحَمـــدٍّ دَعوى فَأَوَّلُها لِيَ اِستِغفارُ

لِتُجيرَني مِن شَرِّ ما أَنا خائِفٌ رَبَّ البَرِيَّةِ لَيسَ مِثلَكَ جارُ

تَقضي وَلا يُقضى عَلَيكَ وَإِنَّما رَبّي بِعِلمِكَ تَنزِلُ الأَقدارُ

---

[1] القتال الكلابي : الديوان، تح : إحسان عباس، (دط)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1989م، ص ص 75، 76.

* كتاب مؤجل: المنية، أي أنه خاف أن تدركه المنية وهو مسجون.

* غير التنحل : أي أن ادعائي إلى أبي أسماء ليس دعوى وانتحالا.

* العدواء : الأرض الصلبة.

[2] محمد نبيل طريفي : ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج1، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004م، ص 158.

كانَت مَنازِلنُا الَّتي كُنّا بـِها | شَتّى وَأَلّـَفَ بَينَـنا دَوّارُ
سجنٌ يُلاقي أَهلَهُ مِــن خَوفِهِ | أَزلاً وَيُمنَعُ مِنهُــمُ الزُوّارُ

وتحمل هذه الأبيات عدة دلالات منـــها : أن الشاعر كان شديد الإيمان بالله وهو يواجه هذه المحنة، حيث يوجه دعـــاءه إلى الله طالبا منه الفرج والمساعدة، كما يبين أن السجناء الذين يوجدون معـــه ينتمـــون إلى أماكن مختلفة ولكن سجن دوار قد ألف وجمع بينهم في مكان واحـــد، وفي الأخير يصور الشاعر سجن دوار وما يلاقيه السجناء فيه من خوف ورعب، ويخـــبرنا الشاعر أن الزيارة فيـــه كانت ممنوعة، فلا أحد يزورهم من الأصدقاء والأقارب والأحبة.

ومن الشعراء الذين ماتوا داخل السجن الشاعر العرجي الذي سجن في عهد هشام بن عبد المالك بسبب تغزله بجيداء أم محمد بن هشام المخزومي ،ومما قاله في سجـــنه: (1)

أضاعوني وأَيَّ فتًى أضاعوا | ليومِ كريهةٍ وسِـدادِ ثَغْـــر
وخَلَّوْني ومُعْتـرَكَ المـــنايا | وقد شُرِعت أسِنّتُها لنحري
أجَرَّر في الجوامِعِ كلَّ يومٍ | ألاَ للهِ مَظْلَمتي وصــــبري

حيث يصور العرجي في هذه الأبيات نفسه ويفتخر بها وأنه شديد الصبر ولا يهاب الموت، كما يشكو إلى الله ويتضرع إليه.

وبسبب محنة السجن ومعاناته فإننا نجد الكثير من الشعـــراء المستعطفين في هذا العصر، ومن هؤلاء الفرزدق الذي يستعطف الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بقوله: (2)

دَعَوْتُ أَمِينَ الله في الأرْضِ دَعَوةً | ليَفرِجَ عَن ساقَيّ، خَيرُ الخَلائِفِ
فيا خَير أهلِ الأرْض! إنّكَ لوْ تَرَى | بِساقَيّ آثَارَ القُيُـــودِ النّوَاســـفِ

(1) العرجي : الديوان، تح : سجيع جميل الجبيلي، (ط1)، دار صادر، بيروت، لبنان، 1998م، ص ص 246، 247.
(2) الفرزدق : الديوان، تح : علي فاعور، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987م، ص371.

إذاً لَرَجَوْتُ العَفْوَ مِنْكَ وَرَحْمَـــةً وَعَدْلَ إمَامٍ بِالرّعِيـــّةِ رَائِـــفِ

هِشامَ ابن خَيرِ النّاسِ إلاّ محَمّداً وَأَصْحابَهُ، إنّي لَكُمْ لـــمْ أُقارِفِ

يصور الفرزدق في هذه الأبيات ما يعانيـــه في السجن وذلك بسبب القيود التي أثقلت ساقيه وتركت أثـــرها عليهما، ويحـــاول أن يكسب عاطفة هشام بن عبد الملك ليعفو عنه ويطلق صراحه وقد استعمل الكثيـــر من الألفاظ والعبارات التي اختارها بعناية لتقوم بهذا الغرض مثل قوله :

خيـــر الخلائف، خيـــر أهـــل الأرض، عـــدل إمام، ابن خيـــر الناس، بالرعية رائف، العفو، الرحمة وغيرها.

كما عبر الشعراء أثناء سجنهم عن الخوف من العقاب، وذلك بسبب ضيق المكان الذي يوجدون به – السجن – والـــذي هو بمثابة قبر لهم، فنجد الشاعر هذبة بن الخشرم ينتحب و يبكي على نفســـه وذلك ليقيـــنه أنـــه على موعد مع الموت، وفي ذلك يقـــول[1]:

أَلا عَلِّلاني قَبلَ نَوحِ النَوائِـــحِ وَقبلَ اطِّلاعِ النَفسِ بَينَ الجَوانِحِ

وَقَبلَ غَدٍ يا لَهفَ نَفسي عَلى غَدٍ إذا راحَ أَصحابي وَلَستُ بِرائِحِ

إذا راحَ أَصحابي بِفَيضِ دُموعِهِم وغُودِرتُ في لَحدٍ عَلَيَّ صَفائِحي

ويلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر قد بدأها باستخدام (ألا) الاستفتاحية التي جاءت للتنبيه وحمـــل من يسمـــع صرخاته علـــى مشاركتـــه انفعالاته وتأكيد قلقه من الموت، فذات الشاعر في معرض التعبير عن آلامها وحزنها.

وفي ظل هـــذه الظروف القاسية التي كـــان يعيشها الشعراء في هذا العصر، من سجن وتعذيب وتنكيل وقتل، فقد كان الشعر هو سلاحهم الوحيد من أجل النجاة والحصول

[1] هدبة بن الخشرم : الديوان، تح : يحي الجبوري، (ط2)، دار القلم للنشر والتوزيع، 1985م، ص 35.

على حريتهم، فقد روت لنا كتب الأدب أن الخليفة هشام بن عبد الملك قد أمر الحجاج بن يوسف بسجن أسلم بن عبد البكـــري وقتله، «فأحضره الحجاج، وإذ يتبعه أربع وعشرون امرأة يعيلهن فدخلن وكان في آخرهـــن جارية قاربت عشر سنين، فقال لها: من أنت منه؟ قالت ابنته»[1].

ثم أنشأت تقول : [2]

أحجاج لم تشهد مقام بناته وعماته يندبنه اللـــيل أجمـــعا

أحجاج لم تقبل به إن قتلته ثمانا وعشـــرا واثنتين وأربعا

أحجاج من هذا يقوم مقامه علينا فمهلا أن تزدنا تضعضعا

أحجاج إما أن تجود بنعمة عليـــنا وإمـــا أن تقتلـــنا مـــعا

فلما سمع الحجاج أبيات هذه الجارية عفا عنه، بالرغم مما اشتهر به الحجاج من القسوة والبطش وإراقة الدماء، ولكن استعطاف تلك الفتاة لعواطف الحجاج ومشاعره جعله يرق ويعطف على أبيها، وهي مـــن المرات القليلة التي يتراجع فيها الحجاج عن أمر من الأمور.

كما سجن الشاعر الكميت بن زيد* في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بسبب هجائه لبني أمية ودفاعه عن آل البيت وأحقيتهم بالخلافة.

ومما قاله في هجاء بني أمية : [3]

---

[1] واضح الصمد: السجون وأثرها في الآداب العربية، ص61.

[2] المرجع نفسه : ص61.

* الكميت بن زيد: هو الكميت بن زيد بن الأخنس بن مجالد بن ربيعة، شاعر أموي مقدم، ولد سنة 160هـــ، وقتل سنة 226هـــ، وقد كان أصم، ومتعصبا لآل البيت فجعل شعره في مدح آل البيت وفي هجاء بني أمية وقد اشتهر بقصائده المسمات بالهاشميات

[3] الكمـــيت بن زيد الأسدي : الديوان، تح : محـــمد نبيل طريفـــي، (ط1)، دار صـــادر، بيروت، لبنـــان، 2000م، ص ص 624، 625.

فقل لبني أمية حيث حلوا وإن خفت المهنّد والقطيعا

أجاع الله من أشبعتـــموه وأشبع من يجوركم أضيعا

ولكن الكميت قام بتغيير موقفـــه عندما تم سجنه وجعل شعره في مدح الأمويين واستعطاف هشام بن عبد الملك، حيث يقول : [1]

أبني أميـــة إنكـــم أهل الوسائل والأوامر

ثقتـــي لكل ملمـــة وعشيرتي دون العشائر

أنتم معـــادن للخلا فة كابراً من بعد كابر

بالتسعـــة المتتابعيـــ ن خلائفاً وبخير عاشر

وإلى القيامة لا تزا ل لشافع منكم وواتـــر

ومن خلال التدقيق في معاني هـــذه الأبيات يتبين لنا أن الكميت كان يمارس نوعا من النفاق السياسي وذلك من أجل الحصول على حريته.

فبالرغم أن ظاهر هذه الأبيات يوحي بأنه مدح ولكنه في الواقع عكس ذلك تماما وخير مثال على ذلك البيت الخامس الذي يقول فيه : [2]

وإلى القيامة لا تزا ل لشافع منكم وواتر

فهذا البيت وإن كان يرضـــي الخليفة الأموي، فإنه في الوقت نفسه يؤلب عليه الأحزاب المعادية له، والتي تنتظر موت كل خليفة أموي لتطالب بالخلافة لشيعتها، فالبيت إذا صرخة يطلقها الكميت في وجه السلطة الأموية دون علمها، فقد استطاع الكميت بفضل ذكائه أن يحصل على حريته، كما أنه حافظ على تشيعه لآخر لحظة في حياته.

---

[1] الكمـــيت بن زيد الأسدي : الديوان، ص131.

[2] المصدر نفسه : ص131.

ونستنتج من كل ما سبق أن شعــراء السجون في العصر الأموي وبسبب الآلام والمعاناة التي عاشوها في السجن، فإنهم قد تناولوا في شعرهم كل ما يتعلق بهذا المكان من قريب أو من بعيد، فقد ذكروا القيود والسجان ووصفوا السجن والأشخاص الموجودين بداخله، كما وصفوا ليله الطويــل والمظلــم، وعبــروا عن حنينهم وشوقهم إلى الأهل والأصدقاء والحبيبة وخوفهم من الموت وصراعهم معه وفقدانهم للأهل وإصابتهم باليأس وشعورهم بالوحدة القاتلة.

4. شعر السجون في العصر العباسي :

شهد العصر العباسي سجن الكثيــر من الشعراء والأدباء ومن العوامل التي أدت بهم إلى الوقوع في حبال السجن نذكر :

أ. انتشار اللهو :

حيث يعتبر شرب الخمر والمداومة عليه من أبرز وسائل اللهو التي كانت تقود صاحبها إلى السجــن، وهذا مــا حصــل للشاعــر أبي دلامــة الذي كــان مدمنا على الخمر، فقبض عليه في إحدى الحانات، وسجن في بيت مع الدجاج، فكتب إلى أبي جعفر المنصور قائلا : [1]

أمير المؤمنين فدتك نفسي علام حبستني وخرقت ساجي

أمن صفراء صافية المزاج كأن شعاعــها لهب الســراج

تهش لها القلوب وتشتهيــها إذا برزت ترقرق في الزجاج

أقاد إلى السجون بغير جرم كأنني بعــض عمال الخــراج

ولو معهم حبست لكان سهلا ولكنني حبست مع الدجــاج

[1] حسن نعيسة : شعراء وراء القضبان، ص ص 121، 122.

وقد استطاع أبو دلامـــة بهذه الأبيات أن يستعطف المنصـــور، مؤكدا له أنه لم يقترف ذنبا يستحق السجن من أجله، فأفرج عنه.

ب. الزندقة :

وقد تعرض الكثير من الشعراء في هذا العصر لمحنة السجن بسبب تهمة الزندقة ومن هؤلاء الشاعر أبو نواس الذي سجنه الأمين بسبب ذلك، ومما قاله في سجنه: [1]

يا رب إن القوم قد ظلمونـــي وبلا اقتراف معطل حبســـوني

وإلى الجحود بما عليه طويتي ربـــي إليك بكذبهم نسبونـــي

ما كان إلا الجري في ميدانهم في كل خزي، والمجانة ديني

يعترف أبو نواس في هذه الأبيات بأنه ماجن ولكنه ليس زنديقا، فالمجون لم يصل به إلى حد الزندقة والكفر بالله.

ج. التمرد على الخليفة والانقطاع عن مجالسه :

لقد شاع الغزل في هذا العصر وكان من بين أسباب السجن، حيث كان الخليفة يأمر الشاعـــر بأن يتغزل أمامـــه، فيمتنع الشاعـــر عن ذلك، فيغضـــب الخليفة ويقوم بسجنه، وخير مثال على ذلك ما تعرض له الشاعر أبو العتاهية من محنة السجن بسبب رفضه التغزل أمام هارون الرشيد، وقد رفض الرشيد الإفراج عنه، حتى قال أبو العتاهية غزلا خفيفا ضريبة لخروجه : [2]

وكلفتني ما حلت بيني وبينـــه وقلت سأبغي ما تريد وما تهوى

فلو كان لي قلبان كلفت واحدا هواك وكلفت الخلـــي لما يهوى

---

[1] أبو نواس : الديوان، (دط)، دار صادر، بيروت، لبنان، (دت)، ص 663.

[2] أبو العتاهية : الديوان، (دط)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986م، ص 30.

د. مكائد الوشاة والخصوم :

كلما زادت مكانة الشاعر وقيمته، كلما كثر حاســدوه الذين يتمنون التخلص منه ويبذلون من أجل هذه الغاية كل جهودهــم، فقد يتهمون الشاعر بالمجون أو الزندقة أو التمرد على الخليفة والطعن فيه، ومن الشعــراء الذين سجنوا بسبب الوشاية الكاذبة من الخصوم والحساد نجد الشاعر علي بن الجهم الذي أتهم بالطعن في الخليفة المتوكل، ومما قاله في سجنه : [1]

تَوَكَّلنا عَلى رَبِّ السَماءِ وَسَلَّمنا لِأَسبابِ القَضاءِ

وَوَطَّنّا عَلى غِيَرِ اللَيالي نُفوساً سامَحَت بَعدَ الإِباءِ

وقد كتب ابن الجهم قصيدة دالية شهيرة يخاطب بها المتوكل، ومما قاله فيها : [2]

قالَت حُبِستَ فَقُلتُ لَيسَ بِضائِرٍ حَبسي وَأَيُّ مُهَنَّدٍ لا يُغمَدُ

أَوَ ما رَأَيتِ اللَيثَ يَأَلَفُ غيلَــهُ كِبراً وَأَوباشُ السِباعِ تَرَدَّدُ

حيث يظهر ابن الجهم في هذه القصيدة صبره وعدم فقدانه للأمل، فهو كالسيف الــذي لا يُسل إلا للقــتل وسفك الدماء، ولا يضــره إذا أُغمد أحيانا، وهو أيضا كالأسد المفترس الذي يفضل البقاء في مكان سكنه، في الوقت الذي تلتف السباع حوله.

ه. الشجاعة :

مــن المعروف أن للشجاعــة وجهين، الوجه الأول إيجابي يستطيع من خلاله الشاعر الوصول إلى أعلــى المراتب وتحقيق جميع أهدافه وذلك بفضل ما يتمتع به من عزم وشجاعة، والوجه الثانــي سلبي قد يؤدي بصاحبه إلى المهالك والسجون، وهذا ما حدث لأبي فراس الحمداني، الذي سجنه الروم في ساحة القتال، وقضى عدة سنوات في

---

[1] علي بن الجهم : الديوان، تح : خليل مروم بك، (ط2)، دار الأفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1980م، ص 81.

[2] المصدر نفسه : ص ص 41، 42.

سجنهم، وقال فيه قصائـــد كثيرة سُميت بالروميات ومن أشـــهر روملياته قصيدته التي يخاطب بها سيف الدولة قائلا : [1]

أرَاكَ عَصِيَّ الدّمعِ شِيمَتُكَ الصّبرُ أما للهوى نهيٌّ عليكَ ولا أمرُ

بلى أنا مشتاقٌ وعنـــديَ لوعـــةٌ ولكـــنَّ مثلـــي لا يذاعُ لهُ سرُّ

حيث يلوم أبو فراس في هذه القصيدة سيـــف الدولـــة، ويحثه على الإسراع في التوسط له عند الروم من أجل أن يحصل على حريته.

وكما تعددت أسباب السجن في هذا العصر وتنوعت، فقد تعددت أيضا مواضيعه وتنوعت، وذلك لأن شعراء السجن فـــي هذا العصـــر تناولوا في شعـــرهم كل ما يتعلق بالسجن من قيود وأغلال ووصف السجن ومعاناته والتعبير عن الشوق والحنين إلى الأهل والأصدقاء والشكوى والعتاب وغيرها من المواضيـــع التي تعبـــر عن آلام الشاعر وما يعانيه في هذا المكان الرهيب.

حيث نجد الشاعر أبا العتاهية يصف لنا فـــي شعره ليالي الأرق التي عاشها في السجن، وذهاب النعاس عن عينيه في الوقت الذي نام فيه جميع الناس، فيقول: [2]

أرقت وطار عن عيني النعاس ونام السامرون ولم يواسوا

ونفس الأمر نجده قد تكرر عند شاعر سجين آخر وهو أبو فراس الحمداني، الذي وصف أيضا ذهاب النوم من عينيه لكثرة همومه، فيقول : [3]

يعزُّ على الأحبةِ، بـــ " الشامِ" حَبيبٌ، بَاتَ مَمْنُوعَ المَنَامِ

وَإني لَلصّبـــُورُ عَلـــى الرّزَايَا وَلَكِنّ الكِلامَ عَلى الكِلامِ

---

[1] عباس إبراهيم : شرح ديوان أبي فراس الحمداني، (ط1)، دار الفكر العربي، بيروت، 1994م، ص 68.

[2] أبو العتاهية : الديوان، ص 233.

[3] المرجع السابق : ص 180.

فقد ذهب النوم عن أبي فراس، وذلك لأنه كثير التفكير في أمه العجوز التي تركها وحيدة تعاني في غيابه، فالهموم تلازمه والآلا م تقسو عليه، كما عبر الشعراء أيضا عن حزنهم وذلك لأن أهلهم قد قاموا بإنكارهم، وهذا ما جعل الشاعر السجين يشك في نسبته إليهم، وقد عبر عن هذا الأمر أحسن تعبير الشاعر محمد بن عبد الملك الزيات الذي سجنه الخليفة المتوكل، وتنكر أصحابه وأهله له وتخلوا عنه، فيقول : (1)

سل ديار الحي من غيرها وعفاهـــا ومحا منظـــرها
وكذا الدنيـــا إذا ما انقلبت جعلت معروفـــها منكرها
إنـــما الدنـــيا كظـــل زائلٍ أحمـــد الله كـــذا قـــدرها

وإذا كان الزيات قد شكى من تنكر الأهل والأصدقاء، فإن أبا العتاهية نجده يشكو من الأغلال والقـــيود، حيث كتب قصـــيدة إلى هارون الرشيد معلنا هزيمته وطالبا العفو والصفح عنه، ومما قاله فيها : (2)

يا رشيدَ الأمرِ أرشدني إلى وجهِ نُجْحٍ لا عَدِمتَ الرَّشَدَا
لا أراك الله ســـوءاً أبـــداً ما رأت مثلك عين أحـــــدا
أَعِنِ الخائف وارحمْ صَوتَهُ رافعًا نحوكَ يَدْعـــوكَ يَـدَا

كما حاول الشعراء تغيير نظرة المجتمع إلى السجن بأنه مكان للمجرمين والقتلة والزنادقة والملحدين، وذلك من خـــلال البحـــث عن الأدلة والبراهين التي تقنع الناس بأن السجن ليس عارا وأن السجين ليس إنسانا مبتذلا كما يعتقدون، فهناك من الشعراء من شبه السجين بالدرّة الحبيسة في الصدف، كقول المتنبي : (3)

لوْ كانَ سُكنايَ فيكَ مَنقَصَةً لم يَكُنِ الدُّرُّ ساكِنَ الصَّدَفِ

(1) محمد بن عبد الملك الزيات : الديوان، تح : يحي الجبوري، (ط1)، دار النشر، عمان، 2002، ص ص 108، 109.
(2) أبو العتاهية : الديوان، ص 157.
(3) أبو الطيب المتنبي: الديوان، (دط)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1983م، ص52.

حيث يصور المتنبي في الشطر الأول من البيت الرؤية الاجتماعية للسجين "إذ أن السجن منقصة للرجال، وهذا هو الاعتقاد السائد، وجاء الشطر الثاني نافيا لهذا الاعتقاد من خلال البرهان الذي ساقه الشاعر بأن الدُّرُّ وهو من الجواهر الثمينة التي يتسابق الناس على امتلاكها يسكن في الصدف الذي يعد سجنا للدر "[1]. فهو بهذا يعيد صياغة رؤية المجتمع للسجن والسجين، ويجعل من السجن مكانا لا يسكنه إلا أشراف الناس وسادتهم.

كما ربط الشاعر "علي بن الجهم" حال السجين بالبدر، فيقول : [2]

إِن يُبتَذَل فَالبَدرُ لا يُزري بِهِ أَن كانَ لَيلَةَ تِمِّهِ مَبذولا

يستحضر الشاعر في هذا البيت صورة فنية تجمع بين الأرض والسماء، "وفي قدرته على الجمـــع تتجلى براعته التصويرية، إذ صـــور حال السجين الذي يختفي في غياهب السجـــن بحال البـــدر التام الذي تخفيه السحـــب أو الغيوم (...)، فالسجن يحجب الشاعر عـــن الأنظار دون أن يلحق به ابتذالا أو إهانة، كما تحجب الغيوم البدر التام دون أن تلحق به ابتذالا "[3].

وهناك من الشعراء من نجده قد ربط بين حال السجين والشمس والغيث، كما هو الحال عند الشاعر علي بن الجهم، حيث يقول : [4]

وَالشَمسُ لَولا أَنَّها مَحجوبَـــةٌ عَن ناظِرَيكِ لَما أَضاءَ الفَرقَدُ

وَالغَيثُ يَحصُرُهُ الغَمامُ فَما يُرى إِلّا وَرِيقُهُ* يُراحُ *وَيَرعُدُ

---

[1] ينظر: عباس علي المصيري : الصورة البيانية عند شعراء السجون في العصر العباسي، مجلة جامعة الخليل للبحوث، عدد1، مجلد4، 2009م، ص169.

[2] علي بن الجهم : الديوان، ص173.

[3] المرجع السابق : ص172.

[4] المصدر السابق : ص42.

* ريقه : الريق من كل شيء : أوله، ومن المطر الشيء اليسير.

* يراح : كان شديد الرياح.

يشبه الشاعر في هذين البيتين حال السجين بالشمس والغيث الذين كلما غابا زادت قيمتهما وزاد ترقب الناس لهما، فالشمس كلما حجبت تكون أنظار الناس مشدودة إلى السماء تترقب طلوعها.

وكذلك الغيث فكلما قل نزولـــه انتظره الناس بفارغ الصبر، وحال السجين لا تختلف عنهما فإن قيمته تزيد في سجنه فإذا غادره فإن الناس يكونون مشتاقين إليه وسعداء بعودته، فالسجن لا يعتبر عيبا في نظر الشاعر بل أنه مفخرة يفتخر بها.

لقد استطاع شعراء السجـــون في هذا العصـــر التغلب على آلامهم وأحزانهم ومعاناتـــهم وحولوا السجـــن من مكان مرعب ومخيـــف لا يدخله إلا المجرمون والقتلة واللصوص إلى مكان جميل يفتخرون به في أشعارهم، كما أنهم ربطوا حال السجين بالشمس والبدر والغيث والخمر والسيف وغيرها من الأشياء التي تعطي السجين مكانة عالية وترد له اعتباره ومنزلته.

5. شعر السجون في الأندلس :

يعتبر الشعر الأندلسي ترجمة صادقة لأحوال الأندلس وما شهدته من تقلبات سياسية، وقد تعددت أغراض الشعر الأندلسي وفقا للمتطلبات التي فرضتها البيئة الأندلسية وحياتها، وكان من بين هذه الأغراض شعر السجون الذي ازدهر ازدهارا كبيرا وأصبح ينافس بقية الأغراض الأخرى مثل المدح والغزل والرثاء، حيث برع فيه مجموعة من الشعراء الذين لولا السجن لما كانت إبداعاتهم قد وصلتنا.

وقد تعددت أسباب السجن في هذا العصر ومنها :

أسباب سياسية :

وذلك لأن الأمراء والملوك لم يكونوا متسامحين مع المعارضة، ليس بالحبس والتعذيب فقط، بل كثيرا ما قاموا بالتخلص النهائي من الأعداء، وقد تعرض الكثير من الشعراء لتهمة الخيانة والتآمر من أجـــل قلب نظام الحكم ورُمِيَ بهم في السجون ومن هؤلاء الشعراء نذكر: ابن زيدون وابن عمار ويوسف بن هارون الرمادي وابن حزم.

أسباب دينية :

وتتمثل أساسا في تهمة الزندقة، التي اتُّهِم بها الكثير من الشعراء الأندلسيين ومن بينهم: الشاعـــر أبو عبـــد الله محمد بن مسعود الغساني الذي كان ماجنا متهتكا معبرا عن ذلك في شعره، كما سجـــن الفيلسوف ابن باجـــة بتهمة التعطيل في الديـــن أو ما يعرف بالدهرية المنكرة للمعاد، المعتقدة بفناء النفس مع الجسد.

وهناك أسباب أخرى للسجن تأتي في مقدمتها جرائم القتل والسرقة والزنا، وغير ذلك من الانحرافات التي عرفها المجتمع الأندلسي.

وبسبب محنة السجن التي مر بها شعراء الأندلس، فإنهم قد أبدعوا نصوصا شعرية تحدثوا فيها عن محنتهم ومعاناتهم في هذا المكان الموحش والمرعب والذي جعلهم يدركون المعنى الحقيقي للحـــياة، ولذلك فقـــد تعددت وتنوعت موضوعات ومعاني شعر السجون عند هؤلاء الشعراء، ومن هذه الموضوعات نذكر :

أ. الاستعطاف :

حيث شغل مساحة كبيرة من شعر السجون، وذلك لأن الشعراء كانوا يطمحون من خلال استعطافهم للحاكم أو الأمير أن يفرج عنهم، ومن هؤلاء الشعراء المستعطفين نجد عبد الملك بن الغصن الحجاري، الذي يستعطف المأمون بن ذي النون بقوله : [1]

إن رمتنا يد الخطوب بقوسٍ طالما كان سهمها لا يصيب

[1] ابن الأبار : إعتاب الكتاب، تح : صالح الأشتر، (ط1)، مجمع اللغة العربية بدمشق، سوريا، 1961، ص 220.

أو يكن عثّر الزمان فمرجوٌّ لإنعاشنا القــريب المجــيب

قد أجاب الإله دعوة نــوحٍ حين نــادى بأنــه مغلــوب

وشفى ذو الجــلال علّة أيــّوب وقد شــارف الــردى أيوب

وانقضى سجن يوسفٍ وقد استيــ أس وارتــدّ مبصراً يعقوب

فقد وظــف الشاعــر قصص الأنبياء مثل نوح وأيوب ويوسف ويعقوب عليهم السلام، وكيف أن الله أجاب دعواتهم وخلصهم من محنهم، فهو كذلك ينتظر أن يقوم المأمون بإخراجه من محنته.

ومن أشهر الشــعراء المستعطفين في الأندلس نجــد الوزير الحاجب المصحفي الذي نظم قصائد يستعطف بها المنصور بن أبي عامر ويطلب منه العفو، حيث يقول : [1]

عفا الله عنك ألا رحمة تجود بعفــوك إن أبعدا

لئن جلّ ذنب ولم أعتمده فأنــت أجلّ وأعــلى يدا

ألم تر عبداً عدا طوره ومولىّ عفا ورشيداً هدى

أقلني أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى

يلاحظ في هذه الأبيات أن الحاجب المصحفي قد وصل إلى درجة كبيرة من اليأس جعلته يستعطف المنصور ويتوسل إليه، إلا أن المنصور رفض العفو عنه وتركه يموت في السجن، رغم فضل المصحفي الكبير عليه.

كما سجن الشاعر أبو الحسن الفكيك من قبل المعتمد بن عباد، بعد أن أُتهم بالإلحاد والزندقة، فقال : [2]

---

[1] أبي نصر الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تح : محمد علي شوابكة، (ط1)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م، ص ص 159، 160.

* أبو الحسن البغدادي الفكيك : شاعر وفد على الأندلس من المشرق، عاش بكنف المعتمد بن عباد ومدحه، كان مشكوكا في دينه ولذلك سجنه المعتمد.

[2] ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح : إحسان عباس، مجلد1، (ط1)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، 1979م، ص 373.

أيا ابن عــباد الملك الــذي يــده من فيضها الرزق بين الخلق مقسوم

فمن رأى شاعراً في السجن مطرحاً في ظلمـــة وهو بالبهتان مظلــوم

ناديت حلمــك والأقدار حائمــة صاحب الحوت نادى وهو مكظوم

وقد بالغ الشاعر في مدح المعتمد بن عباد، حتى جعل أرزاق الخلائق مقسومة من عطاء يده، ثم أنه استمد معانيه من القرآن الكريــم، حيث يشبه نفسه وقد سجن بسيدنا يونس – عليه السلام – وكأنــه بذلك يحــاول تبرئة نفســه من تهمة الزندقة التي لحقته وأصبحت لصيقة به لا تفارقه.

ب. وصف السجن :

قام الكثير من الشعراء بوصف السجن وتصويره تصويرا دقيقا ومن هؤلاء نجد عبد الملك بن إدريس الجزيري الذي يقول في وصف سجنه : [1]

يأوي إليه كل أعور ناعــق وتهبّ فيه كلّ ريح صرصــر

ويكاد من يرقى إليــه مرةً من عمره يشكو انقطاع الأبهر

فقد سجن الشاعر في جبل مرتفع، لا تأوي إليه إلا الغربان الناعقة ولا تهب فيه إلا الريح الشديدة، كما يخبرنا الشاعر أن من يصعد إلى هذا السجن مرة فإنه سيعاني من التعب وانقطاع أنفاسه.

أما ابن شهيد فإنه يصف السجن وصفا تحليليا مؤثرا، وذلك لأنه ابتلى بخمسة مصائب، وهي فراق أحبته وسجنه والشوق إلى خلانه والذل في سجنــه وسجان جبار يقول : [2]

---

[1] الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس، ص 179.

[2] ابن شهيد الأندلسي : الديوان : تح : يعقوب زكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 2013، ص 100.

فراق وسجن واشتياق وذلة وجبار حفاظ علي عتيد

فمن مبلغ الفتيان إني بعدهم مقيم بدار الظالمين طريد

ج. حديث النفس :

أكثر الشعراء الأندلسيون من الحديث إلى النفس ومناجاتها، وخير مثال على ذلك الحاجب المصحفي الذي يقول مخاطبا نفسه : [1]

تأملت صرف الحادثات فلم أَزل أراها توفّي عند مقصدها الحَرا

فللـه أيـام مضـت بسبيلـها فأني لا أنـس لها أبدا ذكـرا

تجافت بها عنّا الحوادث برهة وأبدت لنا منها الطلاقة والبشرا

حيث يعبر المصحفي في هذه الأبيات عن تقلبات الأيام وأحوالها، وكيف أنها توجه سهام غدرها إلى الأحرار من الناس، ثم يتأسف على الأيام الماضية والتي كانت كلها فرحا وسرورا وابتهاجا.

د. الشوق والحنين:

ومن الشعراء الذين عبروا عن شوقهم ممزوجا بالحزن العميق والمعاناة الموجعة الشاعر يوسف بن هارون الرمادي الذي يقول: [2]

على كَبدي تَهمي السَّحابُ وَتَذرفُ وَمِن جَزعي تَبكي الحمامُ وَتَهتفُ

كَأَنَّ السَّحابَ الواكِفاتِ غَواسِلـــي وَتِلكَ عَلى فَقــدي نَوائحُ هُتَّــفُ

ألا ظَعنت لَيلـــى وَبـــان قطينُهـــا وَلَكنَّني باقٍ فَلومـــوا وَعَنِّفــوا

وَآنستُ في وَجه الصَّبـــاح لِبَينها نحولا كَأَنَّ الصُّبحَ مثليَ مُدنَفُ

---

(1) الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس، ص 161.

(2) المصدر نفسه : ص 320.

وقد شرح أحمد هيكل هذه المقطوعة وعلق عليها بقوله : " فالسحب تهمي بالمطر لتبرد غليله، والحمائم تبكي لتنوح على جزعه، بل إنه أشبه بميت تغسله السحب الواكفة، وتنوح عليه الحمائم الهاتفة، إن صاحبته قد رحلت وبعد ركبها، ولكنه هو باق ومن هنا كان طبيعيا أن تذهب نفسه حسرات، وأن يبلغ الحال ما بلغ"[1].

ومما سبق يتضح لنا أن شعراء السجون في الأندلس قد تناولوا في شعرهم العديد من المواضيع والمعاني منها : الاستعطاف ووصف السجن والشوق والحنين والحديث إلى النفس، ويعود اختلاف المعاني التي طرقها الشعراء إلى اختلاف ظروف الشعراء وأسباب سجنهم ومدة السجن ومكانه، ويضاف إلى كل ذلك شخصية الشاعر، فإذا كان متماسكا وصلبا فإن شعره سيخلو من الاستعطاف، وإذا كان عكس ذلك فإن شعره سيكون كله في الاستعطاف والتذلل إلى الحاكم من أجل الإفراج عنه.

ثالثا : موقف الشاعر السجين من السلطان

تعتبر العلاقة بالسلطة من أهم أغراض شعر السجون، ولكل شاعر موقفه الخاص من السلطان الذي قام بسجنه، وتتضافر في بناء هذا الموقف مؤثرات كثيرة منها :"ما جبل عليه الشاعر من المقومات النفسية والخلقية في مواجهة المحنة، ومنها ما انطوى عليه السلطان من النوازع والقيم التي تحكم قراراته وأحكامه، ومنها ما امتاز به العصر من اليسر والصفاء أو التعقيد والاضطراب في السياسة والاجتماع، ومنها مستوى الذنب أو الاتهام الذي أخذ به الشاعر"[2].

فهذه المؤثرات هي التي تتحكم في موقف الشاعر وسلوكه اتجاه السلطان، فإما أن يستعطف السلطان ويعتذر إليه وإما أن يسيطر عليه الخوف والفزع فيأخذ في الاستصراخ

---

[1] أحمد هيكل : الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، (دط)، دار المعارف، القاهرة، 1985م، ص 296.

[2] أحمد مختار البرزة : الأسر والسجن في شعر العرب، (ط1)، مؤسسة علـــوم القرآن، دمشق، ســـوريا، 1985م، ص 523.

والاستغاثة، أو يغضـــب ويتمرد ويتحـــدى السلطان، أو أن يقوم بالعتاب ولوم السلطان وتذكيره بالأيام الماضية التي كان فيها الشاعر خادما له ولا يرفض له أي طلب.

وعند التأمل في الشعـــر الذي قالـــه الشعراء في سجنهـــم فإننا نجد مواقفهم من السلطان تختلف من شاعـــر إلى آخر، ويمكن أن نختصـــر مواقف الشعراء في الاعتذار والاستعطاف والتحـــدي والعتاب والعبودية، وذلك لأن معظـــم شعراء السجون لم تخرج علاقتهم بالسلطة التي سجنتهم عن هذه الأغراض، حيث أن الشاعر السجين قد يتناول منها غرضا واحدا مثل الاستعطاف أو قد يتناول أكثر من واحد أو قد يتناولها جميعا.

1. الاستعطاف والاعتذار :

إن الاستعطاف هو ذلك الشعر الـــذي يبثه الشاعـــر إلى شخص ما لاستمالة قلبه واستدرار عطفه، آملا بعفـــوه عنه، وتخليصه من ضروب المعاناة والحرمان الذين يعاني منهما، ولكن الذي يهمنا فـــي الاستعطاف هو نوع واحد، أي الشعر الذي يستعطف به الشاعر السجين، السلطان الذي قام بسجنه محاولا من خلال شعره أن يعتذر ويبرئ نفسه من التهم المنسوبة إليه، وذلك من أجل أن يعفو السلطان أو الحاكم عنه ويطلق سراحه.

ولم يخل أي عصر من عصـــور الأدب العربـــي من شعراء السجن الذين نظموا شعرا استعطافا أو اعتذارا إلى الحاكم، وكلهم أمل في الحصول على العفو والحرية التي يحلمون بها.

ومن الشعراء المستعطفين نجد الحطيئة الذي قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسجنه بسبب هجاء الزبرقان بن بدر، فكتب الحطيئة من سجنه شعرا يستعطف به عمر ابن الخطاب، يقول : [1]

أمينُ الخليفة بعد الرّسول وأوفى قريشٍ جميعاً حبالا

[1] الحطيئة : الديوان، ص 108.

وأطولهمْ في النّدى بسطة أفضلهم حين عدُّوا فعالاً

فَجِئْتُكَ مُعْتَـذِراً رَاجِـياً لِعَفْوِكَ أَرْهَبُ مِنْكَ النَّكالا

فلا تسمعنْ بي مقال العدا ولا تُوكِلَنِّي هُدِيتَ الرِجَالا

يقوم الحطيئة في هذه الأبيات بمدح الخليفة عمر، ثم يعتذر إليه ويستعطفه ويطلب منه ألا يسمع كلام الحساد والحاقدين الذين يريدون بقاءه في السجن وذلك لأنه يعد مصدر قلق وتهديد لهم.

ومـــن الشعراء الذين اشتـــهروا بالاعتـــذار والاستعطاف، نجد الوزير الحاجب المصحفي، الذي نجد في شعره الكثير من الاستعطاف والتذلل إلى المنصور بن أبي عامر وذلك من أجل أن يعفو عنه ويخرجه من سجنه ومما قاله : [1]

ألم تر عبدا عدا طوره ومولى عفا ورشيدا هـــدى

ومفسد أمـــر تلافيـــته فعـــاد فأصلـــح ما أفســـدا

أقلني أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى

يعترف الحاجب المصحفي في هذه الأبيات بذنبه، ولكنـــه يطلب من المنصور فرصة ثانية من أجل أن يقوم بتصحيح كل الأخطاء التي قام بها في السابق، كما يقوم في البيت الثالث بالدعاء للمنصور، محاولا أن يحصل على عطفه.

كما نجد الشاعر ابن عمار الذي سجنه المعتمد بن عباد و تخلى عنه، ولكنه لم يفقد الأمل في عفو المعتمد وصفحه، فلجأ إلى طلب الشفاعة من الراضي ابن المعتمد، فكتب إليه راجيا منه أن يتشفع له عند أبيه ويكون سببا في العفو عنه، فيقول : [2]

قالوا: أتى الراضي، فقلت: لعلها خلعت عليه من سمات أبيـــه

---

[1] الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس، ص ص 159، 160.

[2] ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم2، مجلد1، ص423.

يا أيها الراضي وإن لم يلقني من صفحة الراضي بما أدريه

هبك احتجبت لوجه عذرٍ بينٍ بذل الشفاعـــة أي عذر فيـــه

خفف على يدك الكريمة أسطرًا في من أسرت فتنثني تفديه

ولكن الراضي رفض الاستجابة لطلب ابن عمار، ولم يحاول الاستشفاع له عند والده، فأعاد ابن عمار المحاولة، ولكن هذه المرة مع المأمون بن المعتمد حيث خاطبه قائلا : [1]

هلا سألت شفاعة المأمون أو قلت ما في نفسه يكفيني

ما ضـر لو نبهته بتحيـةٍ يسري النسيم بها على دارين

يا " فتح " جردها عناية فارس بطل على حرب الولي أمين

واقرن شفاعتك الكريمة عنده بتواضع عن عزة لا هـــون

لكن استعطاف ابن عمـــار لم يؤثر فـــي المعتمد وأبنائه، وذلك لأنه هجاهم جميعا وخانهم.

ومن خلال النمـــاذج السابقة يتضـــح أن الشاعـــر السجين قد يستعطف الحاكم مباشـــرة، أو قد يخاطبـــه عبر وسيط، فيقوم هذا الوسيـــط بنقل استعطاف الشاعر للحاكم ويشفع له، كما أن الحاكـــم قد يقبل استعطاف الشاعر واعتذاره ويصفح عنه، وقد يرفض العفو عن الشاعر ويتركه ماكثا في سجنه.

2. التحـــدي :

حيث أن بعـــض الشعراء تميزوا في سجنهم بالقوة والصلابـــة، ورفضوا الذل والخضوع للسلطان، وعبروا من خلال شعرهم عن صبرهم ومقاومتهم وأنهم لا يطأطئون

---

[1] ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم2، مجلد1، ص ص424، 425.

الرأس ولا يستغيثون، وذلك لأن كرامتهـــم تأتي في المقـــام الأول، حتى لو كان ثمن ذلك حياتهم.

ومن الشعراء الذين تتجـــسد رعونـــة البداوة في سلوكهم ضابـــئ بن الحارث البرجمي، والذي كان لا يعترف بأيـــة سلطة أو حاكم، فقد سجنه الخليفة عثمان بن عفان بسبب الهجاء الفاحش، وكان قادرا على أن يتراجع ويعتذر، ولكن وحشية البدوي غلبت عليه وحاول اغتيال الخليفة عثمان، وقضى بقية حياته في السجن، ويؤكد البرجمي في شعره أنه لم يندم على تصرفـــه، وإنما كان ندمه الوحيد هو فشله في قتل الخليفة، حيث يقول : [1]

هَمَمْتُ ولم أَفْعَلْ وكِدْتُ وليتني تَرَكْتُ على عثمانَ تَبْكِي حَلاَئِلُهْ

وأما الشاعر عبيد الله بن الحر، فقد تحدى مصعب بن الزبير ورفض الخضوع له والتوسل إليه، حيث نظم في سجنه شعرا ندد فيه بمصعب وهدده، كما صرح بانفصاله التام عنه، وانحيازه إلى الفريق المناوئ، وذلك في جرأة البطل الذي وجد في الحبس عارا لا يغسل إلا بالانتقام، حيث يقول : [2]

لا كوفة أمـــي ولا بصـــرة أبي ولا أنا يثنيني عن الرحلة الكسل

فلا تحسبني ابن الزبير كناعس إذا حل أغفى أو يقال له ارتجل

فإن لم أزرك الخيل تردي عوابسا بفرسانها لا أدع بالحازم البطل

ولقد تحول هذا الوعيد والتهديد إلى ثورة حقيقية بعد خروج الشاعر من السجن، حيث أخذ ابن الحر يعيث في نواحي العراق فسادا.

---

[1] واضح الصمد : السجون وأثرها في الآداب العربية، ص 34.

[2] المرجع نفسه : ص 138.

وتعتبر سيرة ضابئ بن الحارث البرجمي وابن الحر، مثالا للمعارضة الساخطة والتحدي للحاكم والسلطة، رغم العواقب الناتجة عن ذلك وهي السجن والقتل.

3. العتــاب :

ويكون العتاب من شاعــر سجين يعتبر أن ثمة روابط مودة تربطه بالسلطة التي تنكرت له في محنته، فـــهو «نوع من القول يعبر فيه الشاعر عما في نفسه من لوم وحقد ويحاول في الوقت نفسه عدم إغضاب السلطان لأنه يرجوا عونه ومساعدته على استعادة حريته»[1].

والعتاب في شعر السجون كثير جدا وخير نماذجه الشاعر الأحوص الذي سجنه عمر بن عبد العزيز وذلك بسبب تغزله ببنات المسلمين، فكتب الأحوص من سجنه شعرا يلوم فيه الخليفة عمر، ويطالبه بإنصافه، فيقول : [2]

أَيَا رَاكِباً إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَــــنّ هديتَ، أميرَ المؤمنينَ رسائلي

فَكَيْفَ تَرَى لِلْعَيْشِ طِيباً ولَـذَّة وخالكَ أمسى موثقاً في الحبائلِ

وكُنْتُ أَرَى أَنَّ القَرَابَةَ لَمْ تَدَعْ ولا الحرمات في العصور الأوائل

يعاتب الأحوص فـــي هذه الأبيات ويلـــوم عمر بن عبد العزيـــز ويذكره بالقرابة الموجودة بينهما، والتي تجاهلها الخليفة وتركه مرميا في السجن.

ومـــن الشعراء المعاتبين أيضـــا نجـــد أبا فراس الحمداني الذي يلوم ويعاتب في رومياته سيف الدولة وذلك لأنه تركه أسيرا في يد الروم، فيقول : [3]

تِلكَ المَوَدّاتُ كَيـفَ تُهمِلُها؟ تِلكَ المَواعيدُ كَيفَ تُغفِلُها؟

---

[1] واضح الصمد : السجون وأثرها في الآداب العربية، ص 238.

[2] الأحوص الأنصاري : الديـــوان : تح : عادل سليـــمان جمال، (ط2)، مكتـــبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1990م، ص ص 225، 226.

[3] عباس إبراهيم : شرح ديوان أبي فراس الحمداني، ص 162.

تِلكَ العُقودُ الَّتي عَقَـدتَ لَنا كَيفَ وَقَد أُحكِمَت تُحَلِّلُها؟

يا واسِعَ الدارِ كَيفَ توسِعُها وَنَحنُ في صَخرَةٍ نُزَلزِلُها!

يا راكِبَ الخَيلِ لَو بَصُرتَ بِنا نَحمِـلُ أَقيِـادَنا وَنَنقُلُـها

إِن كُنتَ لَم تَبذُل الفِداءَ لَـها! فَلَم أَزَل في رِضاكَ أَبذِلُها

يقوم أبي فراس بعتاب سيف الدولة ويلومـــه وذلك لأنه قام برد أمه العجوز خائبة ولم يستجب لطلبها بفدائه.

وخلاصة القول أن العتاب هو بمثابة ثورة كفكف منـــها الخـــوف من الخليفة أو السلطان، ولذلك فإن الشاعر ينتقد السلطان ويرجو منه العون في نفس الوقت.

4. العبوديـــة :

هناك الكثير مـــن القصائد التي نظمها الشعراء في سجنهم، وذلك من أجل التذلل إلى السلطان والخضوع له، محاولين من خـــلال هذه القصائد الحصول على عفو السلطان ورضاه، حيث أن الغايـــة عند هؤلاء تبـــرر الوسيلة، ولو كان ذلك على حساب كرامتهم ومكانتهم وعزتهم.

ومن نماذج عبوديـــة الشاعر للسلطان وتذلـــله إليه، عدي بن زيد العبادي الذي سجنه النعمان بن المنذر، فخاطبه من سجنه قائلا : [1]

وَتَقولُ العـــُداةَ أَودى عَـــدِيٌّ وَعَدِيٌّ بِسُخطِ رَبٍّ أَسيرُ

لا يسخط المليك ما شيع العبـــ دو ولا في عقابه تنكير

كما نجد أبا إسحاق الصابي، الذي رغم تميزه بالصـــبر والصلابـــة إلا أنه لم يستطع الصمود أمام محنة السجن وأهواله، فكتب شعرا يتوسل به إلى عضد الدولة بن بويه، وقد

[1] عدي بن زيد العبادي : الديوان، ص 91.

مدح الصابي من خلال هذا الشعر السلطان وأوغل في الكذب وتشويـــه الحقائق، حـــيث يقول : [1]

فمن لي بصبر عن جبينك لامعاً إذا شيم ما بين السماطين من بعد

براني بريّ القدح شوقٌ مبرحٌ إليه ووجد جلّ عن صفة الوجـــد

إذا أبصرت عيناي خداً معفراً نقلت الـــترب منـــه إلى خـــدي

وإن سمعت أذناي عنك محدثاً لهجت بتكرير الحديث الذي يبدي

فذكراك جهري حين يطرق زائري ونجواك سري حين أخلو بها وحدي

فقد كذب الشاعـــر في هـــذه الأبيات كذبا لم يصدقه السلطان ولم يصدقه الشاعر نفسه، ولاشك أن الشاعر وبسبب محنته قد فقد توازنه المنطقي، فهو فعلا يستحق العطف والرثاء و الرحمة.

[1] أبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق : مفيد محمد قميحة، ج2، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983م، ص ص 350، 351.

الفصـــل الثاني

ابن زيدون ومضامين سجنياته

أولا : ابن زيدون الحياة والنشأة.

1. حياته.
2. مترلته.
3. الآثار الأدبية لابن زيدون.
4. ابن زيدون والسجن.
5. شعره في السجن

ثانيا : مضامين سجنيات ابن زيدون.

أولا : ابن زيدون الحياة والنشأة

1. حياتـــه :

هو أبو الوليد «أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي »[1] الأندلسي القرطبي، وقد ولد بقرطبة سنة 394هـــ، في بيت شرف وفقه وأدب، حيث كان أبوه من أكبر الفقهاء والقضاة بقرطبة، ولذلك نجد ابن بسام يقول عن ابن زيدون في كتابه الذخيرة : « كان أبو الوليد صاحب منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء مخزوم، أحد من جر الأيام جرا، وفات الأنام طرا، وصرف السلطان نفعا وظرا، ووسع البيان نظما ونثرا، إلى أدب ليس للبحر تدفقه، وللبدر تألقـــه، وشعر ليس لسحـــر بيانه، ولا للنجوم الزهر اقترانه»[2].

وقد نشأ ابن زيدون على طلب العلم وتحصيله، حيث تخرج وتعلم على يد «أبيه الفقيه الكبير، وعلى صديق أبيه العباس بن ذكوان عالم قرطبة الأول في عصره، وتخرج في النحو والأدب واللغة على أبي بكر مسلم بن أحمد، ثم تردد على علماء الجامعة الكبيرة في قرطبة، وأخذ عنهم الشيء الكثير في مختلف نواحي الثقافة »[3]. حتى أصبح بعد زمن قصير عالما من أعلام الفكر والأدب، واتصل بأبي الحزم بن جهور وتمكن من نيل مكانة مميزة عنده وذلك بفضل ما يتميز به من ذكاء وعلم ومعرفة، حيث عينه ابن جهور سفيرا يمثله لدى بعض ملوك الطوائف ولقبه بذي الوزارتين، وهو لقب للوزير الذي يعمل مع الملك في تدبير المُلك، ويتولى عنه بعض الشؤون مثل الجباية، فيكون تصرفه في أفعال الرعية وأعمالهم بالقول والفعل.

كما اشتهر ابن زيدون بحب ولادة بنت المستكفي الخليفة الأموي الذي خلعه أهل قرطبة، وقد كانت ولادة من نساء قرطبة الفاتنات والجميلات كما أنها كانت شاعرة جيدة

---

[1] ابن زيدون : الديوان، شرح : يوسف فرحات، (ط2)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م، ص14.

[2] ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم1، م1، ص336.

[3] حنا الفاخوري : الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، (ط1)، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1986م، ص969.

حيث اتخذت مجلسا وجعلته ملتقى لشعراء وأهل الأدب، حيث يقول عنها ابن بسام "وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصـــر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها وكثرة منتباها، تخلط ذلك بعلـــو نصاب، وكـــرم أنساب، وطهارة أثواب "[1]. وقد عشقها ابن زيدون إلى درجة أنه أصبح لا يستطيع فراقها، حيث كتبت إليه ولادة ذات يوم بيتين من الشعر تقول فيهما :[2]

ترقّب إذا جـــنّ الظـــلام زيارتي فإنّي رأيت الليل أكتم للسرِّ

وَبي منك ما لو كانَ بالبدر ما بدا وباللّيلِ ما أدجى وَبالنجم لم يسرِ

إلا أن قصـــة الحب هذه لم تلبث أن تهاوت وتفرق ابن زيدون وولادة وقد ذكرت كتب التاريخ والأدب أسباب الفراق بينهما، ومن أهم هذه الأسباب نذكر :

- أن ابن زيدون كان يكثر من نقده لشعر ولادة، حتى ولو كان هذا الشعر موجها إليه.
- أن ابن زيدون كان يظهر بعض الاهتمـــام بجارية ولادة واسمها عتبة، وهذا ما أغضب ولادة، فقالت مخاطبة ابن زيدون:[3].

لَو كنت تنصفُ في الهوى ما بيننا لم تهوَ جاريتي ولم تتخيـــّرِ

وَتركتَ غصناً مثمـــــراً بجمالـــه وجنحتَ للغصنِ الذي لم يثمرِ

ولقد علمـــت بأنّني بـــــدر السما لَكن دهيت لشقوتي بالمشتري

- أن ابن زيدون قام بصفع ولادة وذلك بسبب خلاف بينهـــما وهذا الأمر أزعج ولادة وأغضبها، فهي ابنة الملوك والأمراء.

---

[1] ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم1، مجلد1، ص 429.

[2] المصدر نفسه : ص 430.

[3] المصدر نفسه : ص ص 431، 432.

يضاف إلى الأسباب السابقة الحملات التي كان يشنها الوشاة والحساد على ابن زيدون ويسعون بها لدى ولادة، وعلى رأس هؤلاء الوزير أبو عامر بن عبدوس والذي كان مغرما بولادة.

وقد أدت المنافسة بين ابن زيدون وابن عبدوس على قلب ولادة، إلى أن كتب ابن زيدون رسالته الهزلية على لسان ولادة والتي قام فيها بهجاء ابن عبدوس والتقليل من قيمته، وهذا ما جعل ابن عبدوس يسعى للانتقام منه، ويحرص على الوقيعة بينه وبين ابن جهور.

وقد نجح في ذلك حيث أتهم ابن زيدون باختلاس عقار، ورمي به في السجن ولكنه نجح في الفرار منه واتصل بصديقه أبي الوليد بن جهور الذي تسلم الحكم بعد وفاة والده، فجعله هذا الأخير وزيره وممثله لدى الملوك، ولكن الحساد لم يتركوا ابن زيدون وشأنه وهذا ما جعله يترك قرطبة، وينتقل إلى إشبيلية، حيث لقي معاملة الملوك من طرف المعتضد بن عباد، الذي كان يحب الشعر والشعراء، ولم تتغير هذه المعاملة كذلك في عهد المعتمد بن عباد الذي قربه إليه وجعله مستشاره ووزيره، وقد تمكن المعتمد بفضل ذكاء ابن زيدون وتخطيطه من السيطرة على قرطبة وضمها إلى مُلْكه، وبقي ابن زيدون إلى جانب المعتمد حتى اضطربت الأحوال في إشبيلية، فأرسل المعتمد ولده الحاجب وابن زيدون لتهدئتها، وكان ابن زيدون مريضا وكبيرا في السن، فاشتدت عليه الحمى وتوفي في إشبيلية ودفن بها سنة 463هـ.

2. منزلة ابن زيدون :

لقد أجمع الباحثون في تاريخ الأدب على أن ابن زيدون أعظم شعراء عصره، وتتجلى منزلته فيما ورد عن المقري أنه قال: "قال بعض الأدباء: من لبس البياض وتختم بالعقيق، وقرأ لأبي عمرو، وتفقه للشافعي، وروى شعر ابن زيدون فقد استكمل الظرف، وكان يسمى بحتري المغرب لحسن ديباجة نظمه، وسهولة

معانيه»[1]. ولم يختلف باحثو الغرب عن باحثي الشرق بشأن منزلة ابن زيدون، فقد قال أنخل جنتالث بالنثيا: « أهم شعراء قرطبة أبو الوليد أحمد بن زيدون المخزومي (...) تمتع بمكانة عالية في المجتمع القرطبي بفضل ما أنفق في تعليمه من عناية وما وهبه الله من ملكة طيبة»[2]. وأما نيكل فيقول عنـــه « إنه شاعر عظيم للحب... وهو مثل لأبدع نموذج للأسلوب العربي الكلاسيكي»[3].

وما يؤكد منزلة ابن زيدون الكبـــيرة هو تلك المعارضات التـــي عورضت بها قصيدتـــه النونية حيث تصدى لمعارضتـــه كبار الشعراء مثل: ابن الوكيل وصفي الدين الحلي وابن نباتة المصري والأعمى التطيلي وأحمد شوقي ومحمد مهدي الجواهري، كما نظم مهرجان في مدينة الرباط سنة 1975م، على شرف هذا الشاعر الكبير. فشاعر تقام له المهرجانات وتعارض قصائده من طرف كبار الشعراء هو – بلا شك – شاعر عظيم يستحق كل التقدير والاحترام.

3. الآثار الأدبية لابن زيدون :

لقد كان ابن زيدون أديبا متميزا، حيث أبدع في النثر والشعر وترك بصمته في كليهما.

أ. الفنون النثرية :

لم يصـــل إلينا من آثار ابن زيـــدون النثرية إلا طائفة قليلة من رسائله الأدبية وسطور من كتابة في تاريخ بني أمية وقد اشتهرت من رسائله، رسالتان هما :

---

[1] أحمد بن محمد المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج3، ص566.

[2] فوزي خضر : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، (دط)، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2004م، ص ص 15، 16.

[3] المرجع نفسه : ص16.

الرسالة الهزلية :

وهي التي كتبها على لسان ولادة وقام فيها بالسخرية من الوزير ابن عبدوس، وقد حملت هذه الرسالة في طياتها منتخبات من الأشعار والأمثال وأسماء الأعلام وقد شرحها ابن نباتة وطبعت في القاهرة تحت عنوان " سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون".

الرسالة الجدية :

وقد كتبها ابن زيدون وهو داخل السجن إلى أبي الحزم بن جهور يستعطفه فيها ويطلب منه أن يطلق سراحه، وقد شرحها الصفدي في كتاب سماه " تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون".

ب. الفنون الشعرية :

ترك ابـــن زيدون ديوانا شعريا تناول فيـــه مختلف الأغراض الشعرية من غزل ومدح ووصف ورثاء وغيرها، حيث وصـــل عدد قصائد الغزل والحنين في الديوان إلى 72 قصيدة، وأما المديح والرثاء فقد بلغ عدد القصائد فيهما معا 50 قصيدة، وأما الشكوى والعتاب فخمسة قصائد والهجاء قصيدتين، في حين شغلت الأغراض الأخرى مساحة لا بأس بها في الديوان وذلك ببلوغها 28 قصيدة، في حين بلغ عدد قصائد الديوان مجتمعة 157 قصيدة، والملاحظ في ديوان ابن زيدون أن شعر المديح والغزل هو المهيمن فيه على عكس شعـــر الهجاء والشكوى والعتاب الذي نجده يحتل مساحة صغيرة في الديوان فقد كان ابن زيدون شاعر الغزل والمدح بامتياز.

4. ابن زيدون والسجن :

لقد تعرض ابن زيدون لمحنة السجن وهو لا يزال شابا لم يبلغ الثلاثين من عمره بعد، وقد أشار إلى ذلك بقوله :[1]

لَم تَطوِ بُردَ شَبابي كَبرَةٌ وَأَرى بَرقَ المَشيبِ اِعتَلى في عارِضِ الشَعَرِ

[1] ابن زيدون : الديوان، ص107.

قَبلَ الثَلاثينَ إذ عَهدُ الصبا كَثَبٌ وَلِلشَبيبَةِ غُصنٌ غَيرُ مُهتَصِـرِ

وقد بقي ابن زيدون في سجنه 17 شهرا، أي أكثر من خمسمائة يوم، حيث لمح إلى ذلك في شعره، فقال :[1]

أفصبرٌ مئينَ خمسـاً منَ الأيّامِ نَاهِيكَ عـنْ عَـذَابٍ أَلِـيمِ!

يحدد ابن زيدون في هذا البيت الشعـري المدة التي قضاها في السجن، كما أنه يخبرنا أنه تعرض لمعاملة قاسيـة، وذلك لأنـه "سجن في البداية في مكان يليق بالسجين السياسي، ثم نزلوا به إلى سجن جمعوا فيه بينه وبين اللصوص وقطاع الطرق، فكان هذا أمرا شديدا جدا عليه، ولعله أيضا مُنِع من أن يزوره أقاربه كالعادة»[2].

أما سبب سجن ابن زيدون فقد اختلف حوله الباحثون، وحتى ابن زيدون نفسه يستفسر عن سبب سجنه في الرسالة الجدية التي بعث بها إلى أبي الحزم حيث يقول: "ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك، والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك، والتفاؤل الذي لم يستغرقه تطولك، والتحامل الذي لم يف به احتمالك، ولا أخلو أن أكون بريئا فأين العدل! أو مسيئا فأين الفضل!» [3]. حيث أن ابن زيدون يلح ويصر على معرفة سبب سجنه.

وهذا ما جعل الباحثين يختلفون في تعليـل السبب الحقيقي لسجنه، فمنهم من قال أنه سُجن بسبب اغتصابه لعقار، ومنهم من جعـل سبب سجنه قيامه بهجاء الوزير ابن عبدوس منافسه في حب ولادة، وأمـا البعض فـرد سبب سجنه إلى طبيعة ابن زيدون العابثة، حيث أنه كان يميل إلى النسـاء واللهو وشرب الخمر، وهذا يتنافى مع طبيعة أبي الحزم الذي اشتهر بتدينه وعفته وزهده وعلمه وسياسته، وهذا ما جعل القطيعة حتمية بين الرجلين وذلك لأن ما يفـرق بينهما أكثر مما يجمـع، كما أن بعض الدارسين يرد سبب

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص281.

[2] محمد رضوان الداية : في الأدب الأندلسي، (ط1)، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2000م، ص325.

[3] خليل ابن أيبك الصفدي : تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، (دط)، المكتبة العصرية، بيروت، 1969م، ص23.

سجنه إلى علاقته بولادة بنت المستكفي وإلى طموحه الكبير وغير المحدود، حيث حامت الشكوك حول علاقة ابن زيدون وولادة، وقيل أنه يقوم بخيانة ابن جهور ويفكر في إعادة بني أمية إلى الحكم، ولعل هذا هــو السبب الحقيقي لسجنه، لأن أشد ما يخشاه الحكام هو تطلع من حولهم إلى السلطة، ولذلك يقومون بسجنهم لمدة غير محددة أو قتلهم، وخاصة إذا علمنا أن ابــن زيدون لم يكن يلجأ إلى النفاق، وإنما كان يعبر عن موقفه صراحة دون خوف، وهذا ما جعله يثير سخط الكثيرين من حوله ومن بينهم أبي الحزم بن جهور.

5. شعره في السجن :

عندما ندرس شعــر ابن زيدون، تطالعنا محنتان أثرتا في حياتــه تأثيرا كبيرا فالمحنة الأولى حبه العاصف لولادة بنت المستكفي، وأما المحنة الثانية فهي سجنه، وقد كان كــل من الحب والسجــن دافعا مباشرا لإبداع ابن زيدون أجمل القصائد التي ظلت خالدة، كما أن ابن زيدون كانت معاناته مضاعفة، فقد تحول سجنه إلى سجنين، السجن الأول هو المكان الذي سجن فيه، وأما السجن الثاني فهو حبه لولادة التي هجرته وتخلت عنه، لذلك كان عذابه كبيرًا ومعاناته لا حدود لها، حيث عبــر عن كل ذلك في سجنياته وبعد بحثي في ديــوان ابن زيدون وقفت على ست قصائد ومقطوعة شعرية ونتفة، نظمها ابن زيدون في سجنــه، وقد خاطب ابــن جهور واستعطفه ومدحه في أغلبــها، كما أن سجنيات ابن زيدون تميزت بطولها، حيث يتراوح عدد أبيات القصائد ما بين 40 و 50 بيتًا، وهذا النفس الطويل لافت للنظر، وذلك لأن شعر السجون يتميز بكونه مقطوعات في الغالب، لأنه عبارة عن خواطر تلم بالشاعر السجين فيصوغها في أبيات موجزة ومعبرة ولكن ابن زيدون كَسَرَ هذه القاعدة وانحرف عن النمط المعهود.

ثانيا : مضامين سجنيات ابن زيدون

كانت فترة سجن ابن زيدون تجربة ومرحلة قاسية في حياته، إلا أن مصيبته هذه كانت نعمة لقــراء الأدب من بعده، نظرا لما خلفه ابن زيدون مــن شعر، أطلق فيه كل عواطفه وحسراته وآلامــه في قالب أدبي رفيع، وحس أدبي راق، حيث كان في سجنياته يتحدث عن آلام الإنسان ويصورها، حتى يراها كل سجيــن أو معذب صورة صادقة لما في نفسه، فما هي أهم المضامين التي جاء بها ابن زيدون في سجنياته؟

1. الاستعطاف :

ما انفك ابن زيدون يستعطف أبا الحزم بن جهور في سجنياته، وذلك ليرقق قلبه ويلين جانبــه، ويستدر رحمتــه، وقد كان في استعطافــه ينفي جميع التهم المنسوبة إليه ويحاول أن يبين أن سبب سجنــه هو دسائس الوشاة والحاسدين، حيث يقول مستعطفا أبا الحزم في بداية سجنه :[1]

ولو أنّني واقعتُ عمداً خطيئــةً لما كانَ بدعاً من سجاياكَ أن تُملي

فلمْ أستَترْ حَرْبَ الفِجارِ، ولم أُطعْ مُسَيلمةً، إذ قالَ: إنّــي منَ الرُّسْلِ

ومثليَ قدْ تهفو بهِ نشوةُ الصِّــبَا وَمثْلُكَ قد يعفو، وما لكَ من مــثْلِ

يخاطب ابن زيدون في هذه الأبيات ابن جهور، ويبين له أنه لم يرتكب الخطيئة عمدا وحتى إذا فعل ذلك، فإن حسن طباع ابن جهور تجعله يمهله ويتقبل عذره، حيث أن ابن زيدون لم يرتكب ذنبا كبيرا وإنما هو مجرد ذنب صغير قام الحساد والوشاة بتضخيمه، ولكنه رغم ذلك لم يفقد الأمل وذلك لأنه يعتمد على عفو ابن جهور وصفحه الذي اشتهر به، كما أن ابن زيدون يذكر في قصائده الاستعطافية لابن جهور بأنه لا يطلب المستحيل وإنما يقتصر طلبه على مجرد الحصول على حريته حيث يقول :[2]

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص242.

[2] المصدر نفسه : ص110.

لا تلْهُ عني، فلمْ أسألْكَ، معتسِفاً ردَّ الصِّبا، بعدَ إيفاءٍ على الكبرِ

وَاستَوْفِرِ الْحَظَّ مِنْ نُصْحٍ وَصاغِيَة كِلاهُما العِلْقُ لَمْ يُوهَبْ وَلَمْ يُعَرِ

هَبْنِي جَهِلْتُ فَكانَ الْجَهْلُ سَيِّئَــةً لا عذرَ منها سوى أنّي من البشرِ

يبين ابن زيدون أنه لا يطلب أمرًا مستحيلاً يصعب تحقيقه مثل استرجاع الشباب بعدما تقدم به السن، وإنما يقتصـــر طلبه على مجرد حصـــوله على حريته التي حرم منها، وهذا أمر في غاية البساطة والسهولة يستطيع أبو الحزم تحقيقه في لمح البصر.

كما يلاحظ أن ابن زيدون في سجنياته لم يستسلم ولم يفقد الأمل، فكلما زاد تجاهل ابن جهور له ورفضه العفو عنه، زاد ابن زيدون في استعطافه وتذكيره بأنه ينتظر هدية منه تنسيه كل الآلام والمعاناة التي ذاقها في السجن، حيث يقول :[1]

أفي العَدْلِ أنْ وافَتكَ تَتْرَى رَسائلي فلمْ تتركَنْ وضعاً لها في يديْ عدلِ؟

أعِـدُّكَ للجلّـــى، وآمـــلُ أنْ أرَى بنعماكَ، موسوماً، وما أنا بالغفْلِ

وما زالَ وَعدُ النّفسِ لي منكَ بالمُنى كأنّي به قد شمتُ بارقـــةَ المحلِ

فقـــد طال ترقب الشاعر لهديـــة ابن جهور، حتى أصبح يخاف أن يكون ترقبه وانتظاره مجرد أمنية تشبه السحابة التي تبرق ولا تمطر.

ولم يكتف ابن زيدون باستعطاف ابن جهور فقط، بل طَلَبَ الوساطة والشفاعة من بعض أصدقائه وذلك لكـــي يستعطفوا ابن جهـــور وينقلوا إليه معاناة الشاعر وآلامه ومن الذين طلب ابن زيدون توسطهم وشفاعتهم أستاذه القديم أبو بكر مسلم بن أحمد القرطبي وصديقه أبو حفص بن برد، حيث نجده يستنجدهما ويلتمس منهما العون والمساعدة، لكي يصل إلى غايته ومبتغاه.

[1] ابن زيدون : الديوان، ص241.

فقد خاطب أستاذه أبا بكر قائلا :[1]

عَليــكَ أبا بَكْــرٍ بَكَرْتُ بهِمــّةٍ لها الخطرُ العالي، وإنْ نالَها حطّ

أبي، بعدَما هيلَ التّرابُ على أبي وَرَهطي فَذّاً، حينَ لم يَبقَ لي رَهْطُ

لكَ النّعمةُ الخضراء، تندى ظلالُها عليّ، وَلا جَحدٌ لدَيّ، وَلا غَمــْطُ

لقد حصر ابن زيدون كل آماله وتطلعاته فــي شخص واحد وهو أبو بكر، حيث يخبره أنه أخذ من اسمه معنـــى التبكير والتعويل، كما أنه يجعله مكان والده المتوفي وهذه منزلة كبيرة لا ينالها أي شخص، إلا إذا كان صاحب فضل وجميل ومعروف ولذلك يناديه الشاعر نادبا ومستغيثا، ثم لا يلبث أن يجعله كل قومه وذلك في قوله: (ورهطي فذّاً)، فقد تخلى كــل قوم ابن زيــدون عنه ولم يبق له إلا أستاذه ومعلمــه أبو بكر صاحب الفضل والجميل الذي لا يستطيع ابن زيدون نسيانه، ولذلك يقول معترفا بالجميل :[2]

وَلوْلاكَ لم تثْقُبْ زِنادُ قَرِيحَتي، فيَنْتَهِبُ الظّلْماءَ من نارِها سِقْطُ

ولا ألّفَتْ أيدي الرّبيعِ بدائعي، فَمِنْ خَاطِري نَثْرٌ وَمن زَهرِهِ لَقطُ

كما خاطب الشاعر صديقه الأديب أبا حفــص بن برد وذكره بنفسه وحاول إثارة عاطفته وحمله على التوسط له عند أبي الحزم بن جهور، فيقول :[3]

يا أَبا حَفصٍ وَما ساواكَ فــي فَهــــمٍ إِيــاسُ

مِن سَنا رَأيكَ لــي فــي غَسَقِ الخَطبِ اِقتِباسُ

وَوِدادي لَــكَ نَــــصٌّ لَــم يُخالِفــهُ قِيــاسُ

يمدح ابن زيدون ابن برد ويقول له إنه لا أحد يساويه في علمه ومعرفته وعدله، حتى إياس بن معاوية المزنـــي الذي كان يتولى القضاء في زمــن عمر بن عبد

---

[1] ابن زيدون: الديوان، ص ص 156، 157.

[2] المصدر نفسه : ص157.

[3] المصدر نفسه : ص139.

العزيز واشتهـــر بالعدل، فإنه لا يساوي ابن بـــرد ولا يصل إلى درجة عدله، ثم يبين أنه يقتبس من رأي ابن برد المنير ما يضيء ظلمته في السجن.

ويقول أيضا :[1]

لا يَكُن عَهدُكَ وَرداً إِنَّ عَهـــدي لَكَ آسُ
وَأَدِر ذِكرِيَ كَأساً ما اِمتَطَت كَفَّكَ كاسُ

يطلب الشاعر من صديقـــه البقاء على العهد ويقول له أنه يجب ألا يكون عهدك معي كالورد فعهدي معك هو كالآس، حيث شبـــه العهد بالورد في سرعة الذبول وبالآس في الدوام والبقاء، كما يطلب منه أن يقوم بتذكره كلما تناول كأسا.

فقد خاطب الشاعـــر ابن جهور في سجنياته وحاول استعطافـــه ولكن هذا الأخير أصر على إبقائه في السجن، وعدم العفو عنه، ولذلك قام ابن زيدون بمخاطبة ابن جهور بطريقة غيـــر مباشرة وذلك عن طريق استعمال الوسيط المتمثل في أبي بكر وأبي حفص ابن برد، ولكـــن هذه الطريقة لم تنفـــع أيضا وظل ابن جهور متمسكا بموقفه، وربما يعود سبب فشل ابن زيدون في استعطافه لأبي الحزم إلى أنه كان يخاطب أميره على شيء من الاعتداد بنفسه، كما كان يفتخر بنفسه ويجعل نفسه مساويا لأبي الحزم، حيث أننا لا نجد في استعطافه ذلك التذلل والخضـــوع الذي طالما وجدناه عند غيره من الشعراء فقد كان ابن جهور ينتظر مـــن ابن زيدون المزيد من الاستعطاف والتوسل والتذلل إليه ولكن ابن زيدون لم يقـــم بذلك وظل مصـــرا على موقفه، وهذا ما جعله يبقى في سجنه يعاني من الآلام والأشواق والقيود والسلاسل.

[1] ابن زيدون : الديوان، ص140.

2. الشوق والحنين :

لقد كانت محنة السجن قاسية جدا على ابن زيدون، وهذا ما جعله يعبر في شعره عن حنينـــه وشوقه، فهو في بعـــض الأحيان يشتاق إلى حبيبته ولادة التي هجرته وتركته وحيدا، ثم لا يلبث أن يحـــن إلى أمه الوحيدة ويشتاق إليها، ثم يمزج هذا الحنين والشوق إلى أمه، بشوقه إلى المكان المتمـــثل في قرطبة، التي ولد ونشأ بها، كما عبر ابن زيدون عن شوقه إلى أصدقائه وأيام الصبى والشباب.

أ. الشوق والحنين إلى الحبيبة :

لقد عبر ابن زيدون عن شوقه الكبير إلى ولادة في سجنياته، حيث تناسى كل آلام السجـــن وما فيه من وحدة وظـــلام وسلاسل وقيود، وأخذ يتغزل بولادة ويحن إلى أيامه الماضية معها والتي كانت سعادة وفرحًا، فيقول :[1]

ما جالَ بعدكِ لحظي في سنَا القمرِ إلاَّ ذَكَرْتُكِ ذِكْرَ العَيْـــنِ بِالأَثَـــرِ

ولا استطلْتُ دماء اللّيلِ من أسفٍ إلاَّ عَلى لَيْلَةٍ سَرَّتْ مَعَ القِصَـــرِ

ناهيـــكَ مِنْ سَهَـــرٍ بَرْحٍ تَأَلَّفَـــهُ شوقٌ إلى ما انقضَى من ذلك السَّمرِ

إن هـــذا الغزل هو غزل تســـري في عروقه نغمة الفقد القاسي والحنين والشوق واليأس ويجري مجرا رمزيا يخطف الأبصار، فقد دفع الشوق ابن زيدون إلى أن يقرن ولادة بالقمر، فكلـــما شاهده شاهد ولادة وتذكرها، بل إنه يذهب أبعد من ذلك عندما يجعل من القمر مجـــرد أثر لولادة، فهـــي العين وهـــو الأثر، ثم انتقل ابن زيدون بعد ذلك إلى الحديث عن الليل، وميز بعضـــه عن بعض، إذ أن الليل عند ابن زيدون ليلان، ليل طويل يقاسي فيه ويعاني من الوحشة والشوق، وأما الليل الثاني فهو ليل ذهب وانقضى، وقد كان الشاعر يتمتع فيه بكثـــير من السعادة والسرور، ولكنه كان قصيرا جدا، وعليه فإن الليل

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 106.

الأول هو تعبيـــر عن حالة الشاعر في السجن وما يعانيه من شوق إلى ولادة، وأما الليل الثاني فهو تعبير عن حياة الشاعر الماضية التي يحن ويشتاق إليها.

كما نجد ابن زيدون يقول في قصيدة أخرى :[1]

تَنَشَّقَ مِن عَرفِ الصَبا ما تَنَشَّقا

وَعاوَدَهُ ذِكـرُ الصِّـبا فَتَشَـوَّقا

وَما زالَ لَمــعُ البَرقِ لَمّا تَأَلَّـقا

يُهيبُ بِدَمعِ العَينِ حَتّـى تَدَفَّـقا

وَهَل يَملِكُ الدَمعُ المَشوقُ المُصَبَّأُ

حيث يقول ابن زيدون فـــي هذه الأبيات أنـــه تنشق ريح الصبا فعاودته ذكرى الشباب وأيامه الماضية التي يحن ويشتاق إليها، حيث كان ينعم فيها بالسعادة رفقة محبوبته ولادة، وقد حرك لمعان البرق عواطف ومشاعر الشاعر، إذ أن البرق يدل على الشوق الكبير، وهذا ما عبر عنه عبد الله الطيب بقوله: "ومن رموز الشوق الكبرى البرق (...) وهو رمز بعيد الغور، شديد العمق، وذلك لأن فيه معنى النار ويرمز إلى خصوبة الأنثى، كما أن فيه معنى السحابة والسقيا... "[2] وكأن ابن زيدون في أبياته هذه يتشوق إلى أن يسقى ويرتوي من عند ولادة، كما أن ابن زيدون يؤكد أن هذا البرق لازال يلازمه ويوقظ أشواقه، حتى تدفقت دموعه ومن المعروف أن الدموع هي أخت الأشواق وقرينتها.

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص197.

[2] وهب رومية : شعر ابن زيدون، قراءة جديدة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2014م، ص115.

وقد بلغ الشوق الذي يعانيه ابن زيدون درجة كبيرة جعلته لا يستطيع أن يكتب شعرا دون أن يعبر فيه عن لوعته وشوقه إلى ولادة، حيث أصبح يتخيل صورتها في كل شيء يقع عليه بصره، ويتذكرها عند هبوب النسيم والرياح حيث يقول :[1]

الهَوَى في طُلُوعِ تِلْكَ النّجُومِ؛ وَالمُنَى في هُبُوبِ ذاكَ النّسِيمِ

سرّنَا عيشُنَا الرّقيقُ الحواشِي، لَوْ يَدومُ السّــرُورُ للمُسْتَدِيــمِ

يحن ابن زيدون إلى هبوب النسيم الذي يحمل إليه نفحات تلك الحسنوات، ومن بينهن حبيبته الرقيقة التي ألهبت قلبه هياما وعشقا وتركته يعاني من الهجر والحرمان، كما يقول في قصيدة أخرى من سجنياته :[2]

فَهِمْتُ مَعْنَى الْهَوى مِنْ وَحْيِ طَرْفِكِ لي إِنَّ الحِوَارَ لَمَفْهُومٌ مِنَ الْحَوَرِ

والصّدرُ، مذْ وردَتْ رفْـــهاً نواحيــهُ، تُومُ القَلائِدِ لَمْ تَجْنَحْ إِلَى صَدَرِ

حســنٌ أفانيــنُ، لمْ تستــوْفِ أعيُنُــنا غاياتِهِ بأفانيــنَ مــن النّظــرِ

يقول ابن زيدون في هذه الأبيات أن مجرد نظرة من ولادة قد فجرت فيه حالة الهيام والعشق، ثم يصف مفاتنها، إذ يرى أن القلائد المعلقة على صدرها، لم تشأ مغادرته وذلك لأن ولادة ذات حسن فاتن وجمال لا نظير له، فقد دفعه الشوق الذي يعانيه في السجن إلى استرجاع هذه الذكريات وذلك لكي يعوض ما فقد من استقرار نفسي في السجن.

ومما سبق يتبين أن شــوق ابن زيدون لولادة كان جامحا لم تقض عليــه الأيام ومرارة السجــن وآلام التعذيب، فقد غدا حبه لولادة هو البلسم الشافي له من ألم السجن وظلمته.

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 280.

[2] المصدر نفسه : ص ص106، 107.

ب. الشوق والحنين إلى الأم :

لقد تذكر ابن زيدون والدته وهو في السجن يعاني من القيود والوحدة، فزاده ذلك ألما فوق الألم الذي يعانيه، ولذلك خاطبها بأبيات من الشعر عبر فيها عن شوقه وحنينه إليها، كما دعاها إلى الصبر وعدم اليأس وفقدان الأمل، فيقول :[1]

أمَقْتُولَةَ الأجفْانِ! مَا لكَ وَالهاً؟ ألمْ تُرِكِ الأيّـامُ نجْـماً هوَى قَبْلـي؟

أقِلّي بُكاءً، لسـتِ أوّلَ حُـرّةٍ طوتْ بالأسَى كشحاً على مضض الثّكلِ

وَفي أُمّ مُوسى عِبْرَةٌ أنْ رَمَتْ بهِ إلى اليَمّ، في التّابوتِ، فاعتبَرِي وَاسلى

لعلّ المليكَ المجملَ الصُّنعِ قادراً له بعد يأسٍ، سوفَ يجملُ صنعاً لي

ولله فينا علمُ غيـبٍ، وحسبـُنا به، عند جوْرِ الدّهرِ، من حَكَمٍ عَدْلِ

يخاطب ابن زيدون والدته ويطلب منها أن تقلل من البكاء عليه، وذلك لأنه ليس أول شخص يدخل إلى السجن ويفترق عن أمه، ويضرب لها مثلا بصبر أم موسى التي رمت به في البحر، ويدعوها إلى أن تقتدي بها، ويخبرها بأن الله عليم بحالهم وأنه لاشك سينصفهما ويخرجهما من محنتهما، كما أن ابن زيدون في هذه الأبيات يكابد ويعاني مرارة الشوق والحنين وذلك لأن طيف أمه الحزينة لم يفارقه ولو للحظة واحدة طوال مدة سجنه.

ج. الشوق والحنين إلى المكان :

لم يخف ابن زيدون في سجنياته شوقه وحنينه إلى مكان ولادته وشبابه المتمثل في قرطبة، حيث كتب قصـيدة يتذكر فيها كـل مناطق قرطبة ويعبـر عن شوقـه لها فيقول :[2]

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص240.

[2] المصدر نفسه : ص 198.

أَقُرطُبَةُ الغَرّاءَ هَل فيكِ مَطمَــعُ؟

وَهَل كَبِدٌ حَــرّى لِبَيــنَكِ تُنقَــعُ؟

وَهَل لِلَيالـيكِ الحَمــيدَةِ مَرجِــعُ؟

إِذِ الحُسنُ مَرأىً فيكِ وَاللَهوُ مَسمَعُ

وَإِذ كَنَفُ الدُنيــا لَدَيـكِ مُوَطّــأُ

حيث يخاطب الشاعر قرطبة ويقول لها : أقرطبة العامرة هل لي أمل بالرجوع إليك؟ وأنا مسجون لا أستطيع مغادرة سجني، وهل يمكن أن تعود لياليك الجميلة التي كنت أستمتع فيها بجمال مناظرك؟ فقد أيقظ السجن في ابن زيدون "الإحساس بجمال الحياة وغضارتها، وأشرقت قرطبة في نفسه وردة من الحنين، فإذا هو يناديها هذا النداء الحميم القريب من القلب متبوعا بهذه الصفة البديعة (الغراء) فكأنها بين البلاد الجواد الأغر بين الخيل"[1] ولم يكتف ابن زيدون بنداء قرطبة فقط بل لجأ إلى "الإضمار بعد الإظهار، فإذا بضميرها يسيطر على المخمس سيطرة مطلقة (فيك، لبينك، لياليك لديك)"[2].

ويتذكر ابن زيدون الزهراء، فيسيطر عليه الشوق إليها، فيقول :[3]

وَيا حَبَّذا الزَهراءَ بَهجَةَ مَنظَرِ

وَرِقَّةَ أَنفاسٍ وَصِحَّةَ جَوهَــرِ

وَناهيكَ مِن مَبدا جَمالٍ وَمَحضِرِ

وَجَنَّةِ عَدنٍ تَطَّبـيكَ وَكَوثـرَ

بِمَرأىً يَزيدُ العُمرَ طيباً وَيَنسَأُ

---

[1] وهب رومية : شعر ابن زيدون، قراءة جديدة، ص 121.

[2] المرجع نفسه : ص 122.

[3] ابن زيدون : الديوان، ص 202.

يقول ابن زيدون في هذه القطعة : ما أحسن الزهراء التي تبهج النظر، فهي رقة النفس والجوهر الصحيح، وهي الجمال حاضرا وجنة عدن وكوثرها المطلوب، فرأيتها تطيل العمر وتجعله طيبا.

فقد شكل الحنين والشـــوق إلى قرطبة حيزا مهما في سجنيات ابن زيدون، وذلك لأنه كان مسجونا في مكان ضيق يعانـــي فيه من السلاسل والقيـــود وهذا ما جعله يتذكر قرطبة الواسعة والجميلة التي تسحر من يراها وتجعله يتمنى عدم مغادرتها.

د. الشوق والحنين إلى الأصدقاء :

نجد ابن زيدون يتشوق إلى الأصدقاء والرفاق ويتأسف لفراقهم، فيقول :[1]

أَسِفتُ فَما أَرتاحُ وَالراحُ تُثمِـلُ
وَلا أُسعِفُ الأَوتارَ وَهيَ تَرَسَّلُ
وَلا أَرعَوي عَن زَفرَةٍ حينَ أُعذَلُ
وَلا لِـيَ مُـذ فارَقتُكُم مُتَعَـلَّلُ
سِوى خَبَرٍ مِنكُم عَلى النَأيِ يَطرَأُ

إن الشاعر ومن شدة شوقـــه وحنينه إلى رفاقـــه، لم يعد يطرب للخمر ولا يهتز للأوتار حين تأسر ألحانها القلوب، كما أنه لا يسعده شيء منذ فارقهم سوى أن يأتي خبر منهم، فيعيد إليه النور بعدما كان يعيش في ظلام بسبب فراقهم.

3. العتاب والشكوى :

من المعروف أن السجن يتميز بقسوته وصعوبة العيش فيه، وخاصة إذا كان السجين من أصحاب المكانة الرفيعة، فإن معاناته ستكون مضاعفة وذلك لأنه اعتاد حياة الترف والثراء، وهذا ما حصـــل لشاعرنا ابن زيدون، حيث كـــان يعيش حياة الترف

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 205.

واللهو، بسبب المكانة التي كان يحتلها، فهو من أعظم شعراء الأندلس، كما أنه صديق لعائلة ابن جهور ووزيرهم المقرب، فلما سجن لم يستطع تحمل هذه الحياة الجديدة وأخذ يعاتب ويشكو، ولكن عتابه وشكواه كانا بلا فائدة.

حيث يقول في عتاب أبي الحزم بن جهور :[1]

أبَا الحزمِ ! إنّي، في عتابِكَ، مائلٌ على جانبٍ، تأوِي إليهِ العُلا سهلِ

حمائمُ شكوى صبّحتــكَ، هوادِلاً، تنادِيــكَ منْ أفنانِ آدابــيَ الهدْلِ

يعاتب ابن زيدون ابن جهور ويشتكــي إليه حاله وما يعانيه في سجنــه من الألم والوحدة، ولكن ابن جهــور لم يستمع إلى شكواه وعتابــه وهذا ما دفع الشاعر إلى عتاب عائلة ابن جهور جميعا، فيقول :[2]

بَنى جَهْــوَرٍ! أحْرَقْتُمُ بِجَفائِكُمْ جناني، ولكنّ المدائحَ تعبــقُ

تعدّونَني كالعنبرِ الوردِ، إنّمَــا تطيبُ لكمْ أنفاسُهُ حينَ يحرقُ!

يعاتب ابن زيدون بني جهور وذلك لأنهم يتجاهلونه ولا يهتمون لأمره، كما أنه أدرك أنهم يتمتعون بمدائحه ويعتبرونه كطيب العنبــر الذي تطيب رائحته حين يحرق فهم يتمتعون بمدائح ابن زيدون فيهم ولذلك يتركونــه في السجن حتى يزيد من مدحهم والثناء عليهم.

كما عاتب ابن زيدون أستاذه وصديقه أبا بكر وذلك لعدم توسطه وشفاعته له عند أبي الحزم، فيقول :[3]

فمَا لَكَ لا تَخْتَصَّني بِشَفَاعَــةٍ، يَلُوحُ عَلى دَهْرِي لمِيسَمِها عَلْطُ

يفي بنسيمِ العنبرِ الوردِ نفحُها، إذا شعشعَ المِسكَ الأحمَّ به خلْطُ

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 241.

[2] المصدر نفسه : ص196.

[3] المصدر نفسه : ص159.

حيث يستفسر ابن زيـــدون عن السبب الـــذي جعل أبا بكـــر لا يتوسط ويشفع له ويقول له أن شفاعته سوف تبقى علامة كالوشم الذي لا تزيله السّنون والأعوام.

ثم انتقل ابن زيدون بعد ذلك إلى الشكوى من الأصدقاء الذين تخلوا عنه وتركوه وحيدا، حيث يقول :[1]

ما تَرى في مَعشَرٍ حالوا عَنِ العَهدِ وَخاسوا
وَرَأَونـي سامِـــــرِيّـاً يُتَّقى مِنهُ المَساسُ
أَذأُبٌ هامَـــت بِلَحـــمـــي فَاِنتِهاشٌ وَاِنتِهاسُ
كُلُّهُم يَسأَلُ عَـــن حالـي وَلِلذِئبِ اِعتِساسُ

لقد حـــول ابن زيدون في هذه الأبيات أفكاره إلى مشاعـــر، حيث زج بهؤلاء الأصدقاء في سياق حيوانـــي، وجعلهم ذئابًا تنهش لحمـــه، ومن المعروف أن الذئاب إذا أحست أن فردًا منها ينزف دما، هجمت عليه، ولذلك شبه الشاعر أصحابه بالذئاب وذلك بسبب غدرهم وخيانتهم وعدم بقائهم على العهد.

ولم يكتف ابن زيدون بشكوى الأصدقاء الذين خانوه، بل ذهب أبعد من ذلك حيث نجده يشتكي من خصومه وحساده فيقول : [2]

بَلَغتُ المَدى، إذ قَصّروا، فقلوبهمْ مكامِنُ أضغانٍ أساوِدُهَا رُقـــط
يولّونَني عرضَ الكراهةِ والقِلى، وما دهرُهمْ إلاّ النّفاسةُ والغمْطُ
وَقَدْ وَسَمُوني بالّتي لَستُ أهْلَها، ولمْ يمنَ أمثالي بأمثالِـــها قـــطّ

[1] ابن زيدون : الديوان، ص139.
[2] المصدر نفسه : ص 158.

يقول ابن زيدون إنه قد بلغ أهدافا بعيدة عالية وقد قصر خصومه عنها فقلوبهم مليئة بالحقد، وحقدهم هذا شبيه بسُم الأفاعي المرقطة، كما أنهم قد نسبوا إليه أمورًا لم يقم بها وذلك بهدف تشويه سمعته ومكانته.

كما عاتب وشكا ابن زيدون في سجنياته أحد وزراء ابن جهور، واصفا له معاناته وآلامه، فيقول[1]

أيّهَا ذا الوَزِيرُ! هَــا أنّا أشْكُــو، والعصَا بدء قرعها للحليــم

مَا عَنَانَا أنْ يَأنَفَ السّابِقُ المَرْبطَ في العتــقِ منــهُ والتّطهيــمِ

وَبَقَاءُ الحُسَامِ في الجَفــنِ يَثْنــي مِنْهُ بَعدَ المَضَاء، وَالتّصْمِيــمِ

إن الشاعر فــي هذه الأبيات يتضرع إلى الوزير بالشكوى ويلفت انتباهه إلى ما وقع عليه من ظلم ويأمل أن ينتبــه إليه فيزيله، كما يشبه ابن زيدون نفسه بالجواد السابق غير الجدير بالحبس والسجــن، كما يشبه نفسه بالسيف القاطع الذي يسبب تركه في الغمد ذهاب قدرته على القطع.

4. وصف الحال في السجن :

صور ابن زيدون في سجنياته حالــه في السجن وما يعانــيه من وحــدة وعذاب وشوق وحنين، حيث يقول :[2]

مَن يَسأَلِ الناسَ عَن حالي فَشاهِدُها مَحضُ العِيانِ الَّذي يُغني عَنِ الخَبَرِ

لَم تَطوِ بُردَ شَبابــي كَبــرَةٌ وَأَرى بَرقَ المَشيبِ اِعتَلى في عارِضِ الشَعَرِ

قَبلَ الثَلاثينَ إِذ عَــهدُ الصِبا كَثَبٌ وَلِلشَبيبَةِ غُصــنٌ غَيــرُ مُهتَصِرِ

ها إِنَّها لَوعَــةٌ في الصَدرِ قــادِحَةٌ نارَ الأَسى وَمَشيبي طائِرُ الشَرَرِ

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 281.

[2] المصدر نفسه : ص 107.

يقول ابن زيدون من يريد معرفة أخباري وذلك بسؤال الناس، فإن حالي معلومة ومعروفة وأن رؤيتي ومعاينتي تغنـــي السائل عن السؤال، ثم يضيف بأن الشيب قد علا رأسه، وأن ذلك الشيب لم يكن بسبب التقدم في الســـن، لأن رأسه اشتعل شيبا قبل الثلاثين من عمـــره فهو لا يزال في قمـــة الشباب والحيوية، ولكن هذا المشيب المبكر كان بسبب المصائب الكثيرة التي كان يعاني منها في سجنه والتي جعلتـــه لا يتمتع بشبابه مثل بقية أقرانه.

كما وصف ابن زيدون الكيفية التي يقضي بها يومه في السجن، فيقول:[1]

رَمَتني اللَيالي عَن قَسِيِّ النَوائِبِ
فَما أَخطَأَتني مُرسَلاتُ المَصائِبِ
أَقضي نَهاري بِالأَماني الكَواذِبِ
وَآوي إِلى لَيلٍ بَطيءِ الكَواكِبِ
وَأَبطَأُ سارٍ كَوكَـبٌ باتَ يُكلَأُ

لقد رمت الليالي ابن زيدون بالمصائب القاسية فأصابته، حيث دخل السجن فكان يمضي نهاره معللا نفسه بالأماني الكاذبـــة، وفي الليل يراقب حركـــة النجوم في السماء والتي تكون بطيئة في سيرها، ويبقى على هذه الحال حتى الصباح.

وقد عبر ابن زيدون كذلك عن صبره في السجـــن، رغم العذاب الأليم الذي يتلقاه ومنع زيارة أقاربه له، حتى وهو مريض يعاني، فيقول :[2]

أفصبرٌ مئينَ خمساً منَ الأيّامِ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابٍ أَلِـــيمِ!
وَمُعَنًّى مِنَ الضّنَـــى بِهَنَاتٍ، نَكَأَتْ بِالكُلُومِ قَرْحَ الكُلومِ

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 198.
[2] المصدر نفسه : ص ص 281، 282.

سَقَمٌ لا أُعَادِ فيهِ وَفي العَائِدِ أنسٌ يفـــي ببـــرء السّقيمِ

يقول الشاعر أنه صبر طيلة الأيام الماضية التي قضاها في السجن، رغم العذاب الأليم الذي تلقاه والجراح التي يعاني منها، ومنع الزيارة عنه ومن المعروف أن الزيارة تساعد على شفاء المريض، حيث يجد المريض المؤانسة ولكن ابن زيدون محروم من ذلك.

5. المـــدح :

لقد طال بقاء ابن زيدون في السجن ولذلك مَدَح أبا الحزم بن جهور وعائلته، لعله بذلك يحصل على عطفهم ويطلقون سراحه ويعفون عنه، فيقول :[1]

وَزيرُ سِلْمٍ كَفاهُ يُمْنُ طائِرِهِ شُؤْمَ الْحُروب، ورأْيٌ مُحْصَدُ المِرَرِ

لم يمدح ابن زيدون في هذا البيت ابن جهور بالشجاعة، كما كان يفعل الشعراء المادحون في جميع العصـــور، بل مدحه بطريقة مغايرة تماما، ولعل سبب ذلك يعود إلى ميل الناس إلى السلم في ذلك العصـــر ونبذهم الجهاد وانغماسهم في ملذات الحياة، فلم تعد صفة الشجاعة والإقدام بالصفات التي تطرب الممدوح، كما مدحه ابن زيدون في قصيدة أخرى، فيقول :[2]

هُمامٌ عَريقٌ في الكِرامِ وَقَلَّما تَرى الفَرعَ إِلّا مُستَمَدّاً مِنَ الأَصلِ

نَهوضٌ بِأَعباءِ المُروءَةِ وَالتُقى سَحـــوبٌ لِأَذيالِ السِيادَةِ وَالفَضـلِ

إِذا أَشكَلَ الخَطبُ المُلِـمُّ فَإِنَّهُ وَآراءَهُ كَالخَطِّ يوضَـحُ بِالشَكـلِ

يمدح ابن زيدون في هـــذه الأبيات ابن جهور ويصفه بالكرم، ويقول له إنك فرع مستمد من الأصل، أي أن كرمـــك هذا قد ورثته عن والدك وعائلتك، كما يمدحه بقدرته على حـــل المشاكل وذلك بفضـــل آرائه الواضحة التي هي بمثابـــة التشكيل الذي يوضح

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 108.

[2] المصدر نفسه : ص 240.

المعنى ويزيل كل إشكـــال أو التباس، ونلاحـــظ من خلال هذا النموذج أن ابن زيدون «يرسم صورة لشخصية مثالية تتمثل فيها كل القيم الخلقية التي يقدرها المجتمع ثم يحاول ربطها بطبيعة الحال بشخصية ممدوحه»[1].

وقد ربط ابن زيدون بين المدح وأدوات زينة الفتاة، فيقول : [2]

محاسنُ، ما للحسنِ في البدرِ علةٌ ، سِوى أنّـــها باتَتْ تُمِلّ فيَسْتَمـــلي

تغِصُّ ثنائي، مثَلما غصّ، جاهداً، سِوارُ الفتاةِ الرّادِ بالمِعصمِ الخَدلِ

وتغنى عنِ المدحِ، اكتفاءً بسروِها، غنى المقلةِ الكحلاء عن زينةِ الكحلِ

حيث يبين ابن زيدون في هذه الأبيات أن ابـــن جهور وبسبب مكانتـــه العالية وأعماله البطولية، فإنه لا يحتـــاج لمدح ابن زيدون، فمدحه مثل الحلي الزائد الذي تضعه الفتاة ويمكن أن تستغني عنه في أي وقت دون أن يؤثر ذلك عليها.

6. الصراع مع الدهـــر :

يمثل الزمـــن أو الدهر عند ابن زيدون القوة التي ترتبـــط في خياله بثنائية الخير والشر، فهو – الدهر – كما يؤنسه يخيفه وكـــما ينفعه يضره، حتى صـــار ذا قدرة كبيرة على تغير حياته وتحويلها، وبات الإنســـان أمامه ضعيفا مسلوب الإرادة وغير قادر على الفعل، حيث يقول في إحدى سجنياته : [3]

مَا عَلى ظَنّيَ بَاسُ، يَجْرَحُ الدّهْرُ وَيَاسُو

رُبّما أشْرَفَ بِالمـــَرْ ء، عَلَى الآمَالِ، يَاسُ

وَلَقَـــدْ يُنْجِيـــكَ إغْفَا لٌ وَيُرْدِيكَ احْتِرَاسُ

---

[1] أشرف محمود نجا : قصيدة المديح في الأندلس، قضاياها الموضوعية والفنية، عصر الطوائف، (ط1)، دار الوفاء، 2003، ص 95.

[2] ابن زيدون : الديوان، ص 241.

[3] المصدر نفسه : ص 138.

يتحدث ابن زيدون في هذه الأبيـــات عن الحياة وأحداثـــها، حيث أنه يتأملـــها مليا، فيراها تعج بالمفارقات، حيث أن المـــرء قد يشرف على اليأس بالرغم مما عنده من آمال، كما أن الإغفال قد يكون سببًا في خلاصك، في حين قد يكون الانتباه الزائد سببا في هلاكك، ولذلك لم يستطع ابن زيدون فهم الحياة وتفسيرها، فنسب كل شيء فيها إلى هذا الصياد الماكر (الدهر).

كما يقول ابن زيدون أيضا :[1]

وَكذَا الدّهْرُ إذَا مَا عزّ ناسٌ، ذَلّ ناسُ

وبنُـــو الأيّامِ أخْيَا فٌ: سَرَاةٌ وَخِسَاسُ

نَلْبَسُ الدّنْيَا، ولَكِنْ متعـــةٌ ذاكَ اللّباسُ

يقول ابن زيدون أن الدهر متقلب فهو يذل أناسًا ويعز أناسا آخرين، فهو لا يدوم على حال واحدة، ولذلك نجد الناس مختلفين فمنهم الأشراف ومنهم الفقراء، ثم يتوصل بعد ذلك إلى أن السعي وراء الدنيا وبريقها هو في الواقع دون فائدة، وذلك لأن الحياة الدنيا ما هي إلا متاع زائل، وهذا ما عبر عنه أحمد جمال المرازيق بقوله: "يتحكم الدهر في هذا المقطع في الحركـــة الإنسانية، اعتـــمادا على ثقافة المراوغة والتقلب، وعدم الثبات على حال، وقد كشـــف صوت الشاعر في البيت الثاني (وكذا الدهر) عن رؤية يقينية سالبة له، أما البيت الثالث فتظـــهر فيه الدنيا التي يصرفـــها الدهر قصيرة الوقت، وآيلة إلى الزوال غير أن الشاعر يفهم سرها فيعلم أنها متعة زائلة، مما ينم عن خبرة ومعرفة بها"[2].

وبسبب تقلب الدهر وسيطرته على حيـــاة الإنسان، فإن ابن زيدون يعترف بعجزه أمامه فيقول :[3]

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص138.

[2] أحمد جمال المرازيق : جماليات النقد الثقافي، نحو رؤية للأنساق الثقافية في الشعر الأندلسي، (ط1)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، 2009م، ص 112.

[3] المصدر السابق : ص139.

أنَا حَيْرَانُ، وَلِلأمْرِ وُضُوحٌ وَالتِبَاسُ

يعترف الشاعر بحيرته وعجزه أمام سلطـــة الدهر وتقلبه، ولكن سرعان ما يعود الأمل إليه فنجده يحاول أن يصالح الدهر، رغم ما يتميز به الدهر من شراسة، فيقول :[1]

إن قسا الدهـــر فللمـــاء من الصخـــر انبجـــاس
ولئن أمسيت محبوســـا فللغـــيـــث احتـــبـــاس
يلبـــد الـــورد السبنتـــي ولـــه بعـــد افـــتـــراس
ويفت المسك في التراب فيـــوطـــا ويـــــــداس

يقول ابن زيدون أنه رغم قسوة الدهر، فإن الإنسان لا يجب أن يفقد الأمل بل يجب أن يظل صابرا حتى يأتي الفرج، فالماء نفسه يتفجر من الصخر إذا حبس، كما أن الأسد يظل مفترسا ولو لازم عرينه ولم يغادره، كما يبين أن سجنه لا يؤثر فيه وذلك لأنه سيغادره في يوم من الأيام ويعود إلى سابق عهده، فكما أن الدهر قام بإحزانه، فإنه بلا شك سيقوم بإسعاده من جديد.

لقد شكل الدهـــر في تصور ابن زيدون قوة خفية تتحكـــم في حياته وتسيطر على إرادته، حتى أصبـــح سببا في كل مـــا يتعرض له في حياته من شقـــاء ومعاناة وسعادة وسرور.

7. عشـــق الذات :

يلاحظ في شعر ابن زيدون ذلك العشق الكبير للذات، وخاصة في سجنياته، حيث تصنع الأنا عالمها الخاص مقابل عالم الآخرين، ويعتبر هذا التقدير الزائد للذات عرضا من أعراض النرجسية، والتي تعني " حب الذات حبا مرضيا، يفضي بصاحبه إلى الوقوع في أخطاء كثيرة نتيجة الصراع النفسي بين مـــا يريده النرجســـي وما يفرضه المحيط

[1] ابن زيدون : الديوان، ص139، 140.

الخارجي من قواعد وقوانين تتنافى مع أناه وكلـــما ازداد النرجسي عشـــقا لذاته ازدادت أخطاؤه»[1].

وحين تطغى عاطفة عشق الذات على العقل يتحول الفخر بالذات إلى زهو مبالغ فيه، وهذا ما نجده حاضرا في شعر ابن زيدون، حيث أنه يرى نفسه من العظماء، وذلك لأن العظماء هم الذين ينكبون ويدخلون السجون، أما عامة الناس فلا يتعرضون للمصائب والنكبات، وهذا ما جعله يعتبر نكبته مثل الرياح العاصفة التي تعصف بالشجر الباسق أو الكسوف الذي يحدث للشمس والقمر، وأما النباتات الصغيرة فإنها تسلم من أذى الرياح العاصفة، كما أن النجوم الصغيرة لا يضرها الخسوف والكسوف، فيقول :[2]

هلِ الرّياحُ بنجمِ الأرضِ عاصفةٌ؟ أمِ الكسوفُ لغيرِ الشّمسِ والقمرِ؟

كما يقوم ابن زيدون بالفخر بنفسه ويبالغ في ذلك كثيرا، وكأنه لم ينظم الشعر لإرضاء شخص آخر غير نفسه، فيقول :[3]

فتأمـــل كيـف يغشى مقلةَ المجد النعاسُ

ويُفتّ المسكُ في الترب فيوطى ويُـداسُ"

يقول ابن زيدون أن النكبة التي حلت به جعلت المجد في حالة نوم في غيابه، كما أنها لم تذهب بقيمته إذ أن المسك يبقى مسكا ولو داسه الناس.

ولم يكتف ابن زيدون بكل هذا الفخر بنفسه، بل نجده يصور ذاته تصويرا خياليا لا يعكس حقيقتها ومكانتها الحقيقية فهو يقوم بتعزية نفسه محاولا إعطاء نفسه بصيصًا من الأمل، فيقول :[4]

وَلا يُغبِطُ الأَعداءَ كَونِيَ في السِجـــنِ

---

[1] حسناء أقدح : النرجسية وتجلياتها في غزل ابن زيدون، مجلة جامعة دمشق، مجلد 29، عدد2، 2013م، ص 190.

[2] ابن زيدون : الديوان، ص 108.

[3] المصدر نفسه : ص 140.

[4] المصدر نفسه : ص 204.

فَإِنّي رَأَيتُ الشَمسَ تُحصَنُ بِالدَّجــنِ

وَما كُنتُ إِلّا الصارِمَ العَضبَ في جَفنِ

أَوِ اللَيثَ في غابٍ أَوِ الصَقرَ في وَكنِ

أَوِ العِلقَ يُخفى فــي الصِوارِ وَيُخبــأُ

يقول ابن زيدون أن الأعداء لا يجــب أن يفرحوا كونه موجودا في السجن، وذلك لأن الشمس نفسها تسجن في العتمة، وقد جسد ابن زيدون في هذا المقطع عشقه لذاته بكل ما تحمله الكلمة من معنى وذلك من خلال الصور التالية :

أنا ← الصارم الغضب في جفن

أنا ← الليث في الغاب

أنا ← الصقر في وكن

أنا ← العلق في الصوار

فبرغم سجن ابن زيــدون ومعاناته، إلا أن حبه لذاته وعشقه لها، جعله يفتخر بها ويعتبر نفســه أفضل من الغير، حيث شكلت الأنا عنده حيزًا مهما من سجنياته، وهو في ذلك يذكرنا بالمتنبي الذي كان معتزا بنفسه وبذاته.

ويمكن أن نفسر هذا الحضور القوي للأنا في شعر ابن زيدون بأنه كان يعتقد أن سجنه هو مجرد مرحلــة مؤقتة، وأنه سيخرج من السجن ويعود لسابق عهده ولذلك قام بتضخيم ذاته ومخاطبة ساجنه ابن جهور بنرجسية وغرور.

8. الواقع المتخيــل / الواقع المعيش :

حاول ابن زيدون في سجنياته الهروب من واقعه الحقيقي وذلك باللجوء إلى صنع واقع متخيل يلبي كل أماله وطموحاته، حيث يقول :[1]

ألمْ يأنِ أن يبكي الغمام على مثلي ويطلب ثأوي البرق منصلتَ النصلِ
وهلا أقامت أنجــم الليل مأتمــاً لتندبَ في الآفاق ما ضاع من نبلْي
ولو أنصفتني، وهي أشكال همتي لألقت بأيدي الــذلّ لّما رأت ذُلّي
ولا افترقتْ سبع الثريّا وغاضها بمطلعها ما فرّق الدهر من شملي

يجسد هذا المقطع الشعري، هروب ابن زيدون من واقعه وصنعه لواقع متخيل حيث أن واقعه المعيش هو وجوده في السجن يعاني ولا أحد يهتم به من أصحابه ورفاقه، وحتى المرأة التي عشقها وكان مستعدًّا للموت من أجلها تخلت عنه، لذلك لجأ إلى واقع آخر متخيل، يتصور فيه أن كل الناس يشعرون بالحــزن على حاله ويتمنون خروجه من السجن، بما في ذلك عناصــر الطبيعة مثل : الغمام والبــرق والليل والنجوم، التي تحزن عليه، حيث إن الغمام يبكي، والبرق يطالب بالثأر، والنجوم تقيم مأتما.

إن ابن زيدون ومن خلال هروبه من واقعــه يحاول أن يقوم بالترويح عن نفسه وإزالة الهموم التي أثقلت كاهله، فهو شخص مهم وصاحب مكانة رفيعة يهتم به كل الناس ويحزنون من أجله، وحتــى الطبيعة وعناصرها تقيم المآتم من أجله، فهذا الواقع المتخيل الذي يجعل ابن زيدون محور كل شيء، يساعده على الصبر والصمود في سجنه ويعطيه الأمل والدافع للاستمرار في الحياة.

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 239.

9. المــوت / الحيــاة :

لقد شكل الموت منذ القديم هاجسا لشعراء ومن بينهم ابن زيدون، الذي يحاول أن يهرب من هذا المفــترس – الموت– بأية وسيلة، ولذلك يطلب الرحمة والرأفة من الحاكم فيقول :[1]

وما زالَ وَعدُ النّفسِ لي منكَ بالمُنى، كأنّي به قد شمتُ بارقةَ المحلِ

إن ابن زيدون مازال متعلقا بأمله في الأمير، على الرغم من إعراض هذا الأخير عنه، وكأنه بذلك متعلق بسراب خــادع وسحاب كاذب، وتعلق الشاعر بالأمير يعكس في حقيقة الأمر مدى تعلقه بالحياة وهروبه من الموت الذي يلاحقه أينما ذهب، فهو يرفض الاستسلام والخضوع له ولذلك يقول :[2]

بأبي أنتَ، إنْ تشأ، تكُ برداً وسلاماً، كنارِ إبراهيمِ

إذ يخشى ابن زيدون وقوع الموت عليه كالصاعقة لذلك فهو يطلب عطف ابن جهور، ويخبره بأنه يستطيع أن ينقذه من الموت وأن يكون بردا وسلاما عليه مثلما كانت نار إبراهيم بردا وسلاما ولم تحرقه.

كما يبين ابن زيدون خوفه وقلقه من إحدى علامات الموت، وهي الشيب الذي بدأ يغطي رأسه، فيقول :[3]

هرمْتُ، وما للشّيبِ وخطٌ بمفرَقي، وكائنْ لشيبِ الهمّ في كبدي وخطُ

حيث يعاني ابن زيدون من الشيب الذي بدأ يغزو رأسه، ويبين أن هذا الشيب قد أصبح هاجسا بالنسبة إليه، فهو يعني ذهاب الشباب والحيوية والنشاط وحلول الموت الذي يترصد به من كل جانــب، حيث أصبح الشيــب عند ابن زيدون معادلًا موضــوعيًا

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 241.

[2] المصدر نفسه : ص282.

[3] المصدر نفسه : ص 157.

للموت، ولذلك فإن قلقه من الشيب هــو في الواقع قلــق من المــوت المقبلة مثل الوحش المفترس الذي ينقض على فريسته دون سابق إنذار.

10. الثبــات / التحــول :

يمثل الثبات والتحــول في سجنيات ابن زيدون عنصــرا مهما من عناصر شعره حيث يجعل نفسه في صــورة الشخص الوفي الباقي على العهد، في حين يصور الآخرين مخادعين خائنين تخلوا عنه بعد محنته.

عاتب ابن زيدون ابن جــهور وذلك بسبب تحــول هذا الأخير وعدم ثباته على عهده، حيث صــرف سمعه ولم يصغ إلى ابــن زيدون، بل أنه أصغى إلى الأعداء الذين يريدون هلاكه، فيقول :[1]

عدا سمعَه عني، وأصغى إلى عدًى لهم في أديمي كُلّما استَمكنوا عَطّ

في حين يؤكد ابن زيدون ثباته وإخلاصه لأبي الحزم بن جهور فيقول :[2]

نذرْتُ شكرَكَ، لا أنسَى الوفاءَ بهِ، إنْ اسفرَتْ ليَ عنها أوجُهُ البشرِ

ورغم أن ابن جهور تركــه وتخلى عنــه إلا أنه بقي وفيا له ولم يخنه كما يفعل الآخرون، كما أنه نفى كل الأكاذيب والتهم التي لفقها خصومه وحساده له، فيقول :[3]

وإني لتنهاني نهاي عن التي أشادَ بها الواشي وَيَعقِلني عقلي

يقول ابن زيدون أن عقله لا يسمــح له أن يقوم بما أشاعه عنه الوشاة من خيانة وغدر.

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص158.

[2] المصدر نفسه : ص110.

[3] المصدر نفسه : ص 242.

كما يعبر ابن زيــدون أيضا عن ثباته وحبه لولادة وأنه لم ينسها ولو ليوم واحد حيث يقول :[1]

ما جالَ بعدكِ لحظي في سنَا القمرِ، إلاَّ ذَكَرْتُكِ ذِكْرَ العَيْنِ بِالأَثَرِ

حيث يقول ما تأملت بعدك ضوء القمر إلا ذكرتك كما تذكر العين الأشياء بعد أن تمسي أطلالا، إذ أنه لا يستطيع نسيانها ولو حاول ذلك فإن ضوء القمر سيذكره بها، فهو ثابت وباق على العهد الذي قطعه لها، كما أن ابن زيدون يتهمها – ولادة – بأنها خدعته وتخلت عنه، وتحولت عنه إلى عشيقها الجديد ابن عبدوس، فيقول :[2]

مَا تَرَى في مَعْشَرٍ حالوا عنِ العهدِ، وخاسُوا

حيث أن ابن زيدون يتهم ولادة صراحة بأنها خانت العهد وابتعدت عن الوفاء الذي كان ينتظره منها.

فقد مثلت ولادة وابــن جهور في سجنيات ابن زيدون التحــول وذلك لأنهما تخليا عنه وهو في أمس الحاجة إليهما، في حين مثل هو الثبات وذلك لأنه بقي على العهد رغم سجنه ومحنته.

11. المــاضي / الحاضــر :

نجد في سجنيات ابن زيدون صراعا بين الماضي والحاضر، حيث يحاول الشاعر الهروب إلى ماضيه وذلك بسبب قسوة حاضره المتمثل في السجن والسلاسل والقيود، في حين أن الماضي كان كله سعادة وهناء وسرور، ومن صور استرجاع الماضي في شعر ابن زيدون تذكره للحظات السعادة والفرح التي قضاها مع ولادة وذلك ليكسر بها حاضره الحزين، فيقول :[3]

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 106.

[2] المصدر نفسه : ص139.

[3] المصدر نفسه : ص 107.

حسنٌ أفانينُ، لمْ تستوْفِ أعيُنُنا غاياتِهِ بأفانينٍ من النّظرِ

لا لَهْوُ أَيَّامِهِ الخالِي بِمُرْتَجَــعٍ ولا نعــيمُ لياليهِ بمنتظرِ

منى ً، كأنْ لم يكنْ إلاّ تذكّرُها؛ إِنَّ الغَرَامَ لَمُعْتَادٌ مَعَ الذِّكَرِ

يتذكر ابن زيدون الماضي وكيف كان يقضي وقته مع ولادة ويقول أنه يحن إليها وإلى جمالها، ورغم أنه كان يمعن النظر فيها إلا أن جمالها متنوع ولم يستطع أن يحيط به جميعا.

كما أنه يتمنى عودة هذا الماضي ولو لفترة وجيزة لكي يحقق بعض الأمور التي فشل فيها في السابق، كما يحن ابن زيدون إلى ماضيه في قرطبة ويتمنى كذلك عودته، فيقول :[1]

مَعاهِدُ أَبكيـها لِعَــهدٍ تَصَرَّما

أَغَضَّ مِنَ الوَردِ الجَنِيِّ وَأَنعَما

لَبِسنا الصِبا فيها حَبيراً مُنَمنَـما

وَقُدنا إِلى اللَذاتِ جَيشاً عَرَمرَما

لَهُ الأَمــنُ رِدءٌ وَالعَداوَةُ مَربَأُ

إن بكاء ابن زيدون على المعاهد والأماكن،هو في حقيقة الأمر بكاء على الماضي الــذي مضى ولن يعود، فقد ذهــب الماضي وذهبت معــه أيام الصبا والسعادة واللهو والأمن، وحل مكانه حاضــر تعيس كله محــن ومصائب وأهوال وشوق وحنين ورجاء فالفرق بين الماضي والحاضر عند ابن زيدون هو كالفرق بين السماء والأرض أو الليل والنهار.

[1] ابن زيدون : الديوان، ص202.

12. الحكمـــة :

لقد اكتسب ابن زيدون في سجنه الخبرة التي كان يفتقدها، حيث تعرف على الحياة وتقلباتها، وأنها لا تدوم على حـــال واحدة فهي كما تسعدك قد تبكيك وكما تعطيك شيئا قد تؤخذ بدلا منه أشياء، ولذلك حاول أن يوصل تجربته وخبرته إلى غيره وذلك عن طريق أبيات من شعر يغلب عليها طابع الحكمة والزهد، فيقول :[(1)]

وَاغْتَنِمْ صَفْوَ اللّيَـــالي؛ إنّمَا العَيْشُ اخْتِلاسُ

وَعَسَى أنْ يَسمحَ الدّهرُ، فقدْ طَـــالَ الشِمّاسُ

حيث يقول ابن زيدون اغتنـــم صفاء الليالي وتمتـــع بها، وذلك لأن العيش فرص تختلسها، فقد يحل الفراق والبعد وتنتظر طويلا لعل الدهر يجمعك بمن تحب، فقد ندم ابن زيدون على أيامه الماضية التي كان فيها بعيدا عن الأشخاص الذين يحب، ولذلك فهو يتمنى عودة الأيام الماضية ليصحح الخطأ الذي وقع فيه.

ويقول ابن زيدون أيضا :[(2)]

وَهُوَ الدَهرُ لَيسَ يَنفَكُّ يَنحو بِالمُصابِ العَظيمِ نَحوَ العَظيمِ

حيث يبين ابن زيدون أن الدهر لا ينفك يميل بالمصيبة العظيمة نحو العظيم من الناس، فقد تفطن الشاعر إلى أن الدهر صياد ماهر لا يصطاد إلا العظماء من الناس الذين يعتقدون أنفسهم بعيدين عن تقلباته وغدره.

كما يقول ابن زيدون في قصيدة أخرى :[(3)]

أَإِخوانَنا لِلوارِديـنَ مَصـادِرُ

وَلا أَوَّلٌ إِلّـا سَيَتلـوهُ آخِـرُ

(1) ابن زيدون : الديوان، ص 140.

(2) المصدر نفسه : ص 281.

(3) المصدر نفسه : ص 203.

وَإِنّي لِأَعتابِ الزَمانِ لَناظِــرُ

فَقَد يَستَقيلُ الجَدُّ وَالجَدُّ عاثـرُ

وَتُحمَدُ عُقبى الأَمرِ مازالَ يُشنَأُ

يبين الشاعر أن لكل شيء في الحياة ضد، حيث أن الواردين لهم مصادر، وأن لا أول إلا ويتلوه آخر، كما يقول أنه سوف يسعى إلى إرضاء الزمن وذلك لأن الحظ قد ينهض بعد أن يكون عاثرا، فيجب على الإنسان أن لا يفقد الأمل ويظل ثابتا وصامدا أمام المحن والنكبات لأن الفرج قد يأتي في أية لحظة لا يتوقعها الإنسان.

الفصـــل الثالث

الصورة في سجنيات ابن زيدون

أولا : مصادر وأنماط الصورة عند ابن زيدون.

1. الصورة المفهوم والمصطلح
2. الصورة في النقد العربي القديم
3. الصورة في النقد العربي الحديث
4. مصادر الصورة في سجنيات ابن زيدون
5. أنماط الصورة في سجنيات ابن زيدون

ثانيا : أدوات تشكيل الصورة في سجنيات ابن زيدون.

1. الصـــور البيانية
2. الصور البديعية

أولا : مصادر وأنماط الصورة عند ابن زيدون

1. الصورة المفهوم والمصطلح :

إذا أعتبر الإيقاع الموسيقي أهم فارق بين فن الشعر وفن النثر، فإن أهم خاصية تميز لغة الشعر عن لغة النثر هي الصورة، وذلك لأن الصورة هي الأداة التي يتخذ الشعر بواسطتها سبيله إلى التأثير في المتلقي إيحاءا أو رمزا.

ويعتبر مفهوم الصورة الشعرية « من أعقد المصطلحات الأدبية والنقدية، لأنه مصطلح حديث نسبيا إذ ترجم من الكلمة الفرنسية (image)، ولأن النقاد العرب في العصر الحديث لم يتفقوا على تعريفها تعريفا شافيا، لأن كل واحد منهم يعطيها مفهوما يختلف عن مفهوم الآخر، وذلك نتيجة لتأثر هؤلاء النقاد بالمدارس الغربية المختلفة والمذاهب النقدية العديدة »[1].

حيث يعرف برنار قراسي الصورة بقوله: « إنها استحضار مشهد من الطبيعة أو من حقيقة الإنسان، إنها إجمالا ربط الاهتزازة العاطفية التي يريد الفنان أن يولدها في محاولة لمنافسة الأشياء، وهي نداء إلى العام من أجل الإحساس بالخاص»[2].

والصورة الأدبية كذلك هي « أسلوب يجعل الفكرة تبرز بكيفية أكثر حساسية وأكثر شاعرية، تمنح الشيء الموصوف أو المتكلم عنه، أشكلا وملامح مستعارة من أشياء أخرى، تكون مع الشيء الموصوف علاقات التشابه والتقارب من أي وجه من الوجوه»[3].

---

[1] محمد زغينة : الأبعاد الموضوعية والخصائص الفنية في سجنيات شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، 1954م، 1962م، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، 2009م، ص236.

[2] محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، 1925م،1975م، (ط2)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006م، ص422.

[3] المرجع نفسه : ص422.

ولذلك فإن النقد الحديث يعتبر عنصر التصوير من أهم العناصر التي يكتسب بها العمل الشعري صفته الفنية، فبقدر توفره على الصورة بقدر ما يكون قريبا من بقية الفنون الأخرى.

فالصورة هـــي " تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان مـــن معطيات متعددة، تبدأ من العالم المحسوس، أغلبها مستمـــد من الحواس إلى جانب الصورة النفسية والعقلية، ويدخل في تكوينها الصور البلاغية من تشبيه ومجاز، إلى جانب التقابل والظلال والألوان، تنطلق من الألفاظ التي تكونها لتستقر إلى المعاني الإيحائية التي قصدها مؤلفها "[1].

ومن هنا يبدو أن الصـــورة لا يمكن أن تخضع للتحديد، وذلك لأن كل عمل أدبي لا يعدو أن يكون برمته تصويرا بالكلمات.

2. الصورة في النقد العربي القديم :

لا يمكن أن نبدأ بالتعـــرض لمصطلح الصورة الفنية دون الالتفات إلى مفهوم الصورة في كتب البلاغة والنقد العربي القديم، ومعرفة مدى التفاوت بين النقاد والبلاغيين في تناولهم لهذا المصطلح، وبما أن الموضوع واسع جدا، فإننا سنكتفي بتناول أبرز تلك الآراء.

حيث كان النقاد والبلاغيين القدامى يتكلمون عن الصورة على أساس أنها المجاز والاستعارة والتشبيه، وهذا ما نلاحظه من خـــلال تعريفاتهم لها، أو من خلال تعريفهـــم لشعر، فقد عرف عبد الرحمـــان بن خلدون الشعر بقوله: « هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصـــاف »[2]. وأما ابن رشـــيق القيرواني فإنه يكتفي بإضافة التشبيه

---

[1] علي البطل : الصورة في الشعـــر العربي حتى أواخـــر القرن الثاني الهجري، (ط3)، دار الأندلس، لبنان، 1983م، ص30.

[2] عبد الرحمان ابن خلدون : المقدمة، ضبط : خليل شحاذة، ج 1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2001م، ص789.

فيقول:"الشعر ما اشتمل على المثل السائر، والاستعارة الرائعة، والتشبيه الواقع وما سوى ذلك فإنه لقائله فضل الوزن"[1].

حيث أن الصورة عند هذين الناقدين لم تخرج في عمومها عن كونها استعارة رائعة وأوصاف جميلة، وتشبيه واقع، وأنها استعملت للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي.

ويعتبر عبد القاهر الجرجاني أول من أعطى للصورة دلالة اصطلاحية وذلك في كتابه دلائل الإعجاز، فهي تعني عنده الفروق المميزة بين معنى ومعنى، وقد شبهها بالفروق التي تميز هيكل الإنسان، فيقول: " ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب، يصاغ منهما خاتم أو سوار، فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذي وضع فيه ذلك العمل وتلك الصنعة"[2].

فالصورة عند الجرجاني هي الشكل الذي تتشكل فيه المعاني سواء كانت حقيقية أو مجازية، فهو عندما يقول أن التصوير والصوغ فيه كالفضة يصاغ منها خاتم، فالفضة عنده هي المعاني بينما الخاتم هو الشكل أو الصورة التي شكلت منها تلك المعاني، وأنه إذا أردنا معرفة مدى جودة هذا العمل فعلينا أن ننظر إلى الفضة في حد ذاتها.

كما يقول الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة: " الصورة المعمولة فيها كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافا في الشكل والهيئة، ثم كان التلاؤم بينهما مع ذلك أتم والائتلاف أبين، كان شأنها أعجب والحدق لمصورها أوجب"[3].

---

[1] ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح : محمد محي الدين عبد الحميد، ج 1، (ط5)، دار الجيل، سوريا، 1981م، ص 122.

[2] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، (ط5)، قرأءه وعلق عليه : محمود شاكر، مكتبة الخانجي، 2004م، ص ص 254، 255.

[3] عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة، تح : محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1998م، ص 127.

حيث يرى أن تلاؤم الصور وتماسك أجزائها وتناسبها مع تصويراتها يجعلها أكثر جمالا ورونقا، بل أن هذه الصور قادرة أن تجعل مصورها في مصاف الأدباء.

وأما الرماني فقد عد الصورة من أهم الأغراض التي يقوم عليها الشعر فيقول: «أكثر ما تجري عليه أغراض الشعـــر خمسة : النسيب والمدح والهجاء والفخر والوصف ويدخل التشبيه والاستعارة في باب الوصف»[1].

وأما الصورة عـــند قدامة بن جعفر فهي بمثابة الشكل والإطار الخارجي لشعر فيقول: «إذا كانت المعاني لشعر بمنزلة المقابل الموضوعي، والشعر فيهما كالصورة، كما يوجد في كل صناعة ولابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصورة »[2].

حيث جعل قدامة الشعر صورة للمعـــاني والمعاني مادة الشعر، وإبداع الشاعر يتجلى في اللفظ والشكل.

وأما ابـــن الأثير فإنه قد استعمل الصورة بمعـــنى المحسوس، فيقول: « فالتجسيم إلباس المعنويات صـــور المحسوسات، والتشخيص منـــح الصفة الإنسانية لما هـــو ليس كذلك، والصورة الفنية الرائعة هي التي يستطيع صاحبها تجسيد المعنويات وإظهارها في ثوب المحسوسات وذلك تشخيص الجمادات»[3].

وعليه فقد فهمت الصورة عند النقاد والبلاغيين القدامى على أنها: «لون من ألوان الزخرف والحلي، ووجه الشعراء جل اهتمامهم إلى البحث عن الجمال الشكلي والزينة ولم يتوصلوا إلى فهم قيمة الاستعار ة في خدمة الصورة الكلية ونقل المعنى المراد وزيادة

---

[1] ابن رشيق القيرواني : العمدة، ص 120.

[2] قدامة بن جعفر : نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (دت)، ص4.

[3] عبد الله التطاوي : الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد، (دط)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002م، ص254.

الإحساس بالصورة، كما أن هذا الاتجاه حد من انطلاقة الشعر وأوقف المد العاطفي لدى الشعراء وصرفهم إلى المظهر الخارجي فغفلوا عن تعمق بواطن الأشياء»[1].

3. الصورة في النقد العربي الحديث :

لقد حظي مصطلح الصورة على غرار كل المصطلحات النقدية الحديثة باهتمام كبير لدى كثير من الدارسين والنقاد العرب المحدثين، وذلك لأن الصورة ركن أساسي من أركان العمل الأدبي فهي وسيلة المبدع المثلى التي يستعين بها في صياغة تجربته الإبداعية، وأداة الناقد التي يحكم من خلالها على أصالة الأعمال الأدبية، ولذلك فإننا نجد الكثير من المفاهيم والتعريفات لصورة، فمنهم من ربط تعريفها بالوجدان كما فعل عز الديـــن إسماعيل الـــذي يقول: « الصورة تركيبية وجدانية، تنتمي في جوهرها إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع »[2]. حيث أن الصورة في حقيقتها ما هي إلا ترجمة لعواطف ومشاعر المبدع، أكثر من كونها تعبيرا عن الواقع.

أما عبد القادر الرباعـــي فإنه يـــرى أن الصورة ما هي إلا تشكيل عقلي، حيث يقول:« إن الصورة في المفهوم الفني أية هيئة تثيرها الكلمات الشعرية بالذهن شريطة أن تكون الهيئة معبرة وموحية في آن واحد»[3].

في حين نجد علي البطل يذهب إلى أن الصورة « تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة يقف العالـــم المحسوس في مقدمتها »[4]. حيث قام علي البطـــل بربط الصورة بالعالم المحسوس أي بالشكل.

---

[1] محمد زغينة : الأبعاد الموضوعية والخصائص الفنية في سجنيات شعراء جمعية العلماء المسلمين، ص239.

[2] عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية، (ط 3)، دار العودة، بيروت، 1981م، ص127.

[3] عبد القادر الرباعي : الصورة في النقد الأوروبي، مجلة المعرفة، عدد 464، 1979م، ص42.

[4] علي البطل : الصورة في الشعر العربي، ص30.

وأما شوقي ضيف فيرى أنه « لا فارق بين المعنى والصورة أو اللفظ في نموذج أدبي، إلا إذا جعلنا المعنى أو المضمون هو الأحاسيس الأولى عند الشاعر أو الكاتب وإنما الشأن في المعاني التي يحتويها النموذج، ومعنى ذلك أن مادة الأدب وصورته لا تفترقان، فالصورة عبارة عما ينتج من اتحاد الشكل والمضمون وتلاؤمهما وانسجامهما»[1].

وقد حاول عبد القادر القط في تعريفه لصورة أن يجمع جميع الأشكال التصويرية الفنية، فيقول: « هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص، ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتراكيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والجناس وغيرها من وسائل التعبير الفني»[2].

ولكن عبد القادر القط اقتصر في هذا التعريف على وسائل التعبير الفني البيانية البلاغية وأغفل بعض الجوانب اللغوية والموسيقية التي لها دور فعال في التعبير الفني.

وعلى العموم فإن الصورة عند النقاد المحدثين « هي الصيغة اللفظية التي يقدم فيها الكاتب أو الأديب فكرته، ويصور تجربته مع حرية التحليق الخيالي، والعاطفي وأن يترك في النفس انطباعا جميلا مبهما أشبه بما يتركه منظر من مناظر الوجود الرائعة في نفس الإنسان بشحناتها العاطفية وإيحاءاتها النفسية اللتين تبعثان على المتعة والإحساس بالجمال»[3].

ومن هنا يمكن أن نستنتج الفرق بين مفهوم الصورة عند القدماء ومفهومها عند المحدثين، « فالقدماء يعتمدون على المشابهة عموما والمنطقية والعقلية، بينما يعتمد

---

[1] شوقي ضيف : في النقد الأدبي، (ط8)، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، 1993م، ص161.

[2] عبد القادر القط : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1986م، ص42

[3] محمد زغينة : الأبعاد الموضوعية والخصائص الفنية في سجنيات جمعية العلماء المسلمين، ص240.

المحدثون على الإثارة والدهشة أو ما تتركه الصورة في النفس والشعور، وهم لا يعتمدون على المشابهة إذ يمكن أن تكون الصورة من فقرة، أو كلمة مشعة»[1].

كما أن القدمـــاء يرون الصـــورة "وسيلة من وسائل التزيين وضربا من ضروب الإيضـــاح العقلي والتحسين اللفظي، بينما يرفـــض المحدثون هـــذا ويشترطون الحريـــة التامة، عاطفة وخيالا وتركيبا وفكرا "[2]. ومن خلال كل ما سبق فإن الصورة هي جوهر الشعر وأداته وبدراستها يتمكن الأديب من النفاد إلى أغوار البنية الشعرية.

4. مصادر الصورة في سجنيات ابن زيدون :

هناك العديد من المؤثرات التي جعلت ابن زيدون يأخذ صوره من منابع ومصادر مختلفة، ومن هذه المؤثرات نجد الطبيعة، والزمن، والمكان، حيث كان لهذه العناصر أثر كبير في جعل قصائد ابن زيدون ثرية من حيث التصوير، كما أنها كانت منطلقات لتحليق الشاعر في سماء الخيال.

أ. الطبيعـــة :

تعتبر الطبيعة من أهم مصـــادر التصوير الفني فـــي الشعر "لما تشتمل عليه من جمال جذاب من ناحـــية، وما يحيط بها من أسرار من ناحية أخرى، ولذلك كانت الطبيعة (...) معينا لا ينضب للشعراء في كـــل زمان ومكان، وكانت هي المحرك المؤثر لخيال الشاعر»[3].

وقد كانت الطبيعة من أهم المصادر والمنابـــع التي أخذ منها ابن زيدون صوره الفنية، ومثال ذلك قوله :[4]

أَلَم يَأنِ أَن يَبكي الغَمامُ عَلى مِثلي وَيَطلُبَ ثَأري البَرقُ مُنصَلَتَ النَصلِ

---

[1] محمد زغينة : الأبعاد الموضوعية والخصائص الفنية في سجنيات جمعية العلماء المسلمين، ص240.

[2] المرجع نفسه : ص241.

[3] فوزي حضر : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، ص168.

[4] ابن زيدون : الديوان، ص239.

وَهَلّا أَقامَت أَنجُمُ اللَيلِ مَأتَمــاً لِتَندُبَ في الآفاقِ ما ضاعَ مِن نَثلي

وَلو أَنصَفَتني وَهيَ أَشكالُ هِمَّتي لَأَلقَت بِأَيدي الذُلِّ لَمّــا رَأَت ذُلّــي

وَلا افتَرَقَت سَبعُ الثُرَيّا وَغاضَها بِمَطلَعِها ما فَرَّقَ الدَهرُ مِن شَملي

لَعَمرُ اللَيالي إِن يَكُن طالَ نَزعُها لَقَد قَرطَسَت بِالنَبلِ في مَوضِعِ النَبلِ

يقول ابن زيدون في هذه الأبيات، ألم يحن الوقت كي يبكي الغمام على من كان مثلي، ويطالب نصل البرق المنصلت بثأري؟ وأن تقيم نجوم الليل مأتما، لتندب في الآفاق منصبي ووجاهتي؟ ولو أن النجــوم أنصفتني وهي المجسدة لهمتي، لرمت ذلي جانبا ولتفرقت كواكبها السبعة وأخافها ما كان من حالي، وإن تكن الليالي قد طال رميها إياي بالمصائب، فلقد أصابت نبالها موضع النبل مني.

وتتضح « في هذه الصورة قدرة ابن زيدون التصويرية، حيث امتزجت الطبيعة وما تشتمل عليه من مكونات، بأحاسيسه المتأججة، فتوحد مع عناصر الطبيعة، وصارت أشخاصا تبكي وتتأثر، وتقيم المآتم، وتندب القتيل، وتلقي بنفسها من عليائها متضامنة معه وتشد وتر القوس وترمي بالنبال فتصيب هدفها »[1].

وقد استخدم ابن زيدون مفردات الطبيعــة التي ساهمت في رسم الصورة مثل: الغمــام والبرق والنجــوم و الليل، حيث « استعمل الغمام للبكــاء، فأنشأ علاقة بين سقوط الأمطار من الغمام وسقــوط الدموع من العيون، كما أنشأ علاقة بين البرق بما يطلقه من ضوء لامع سريع والسيف الذي يتحرك في الهواء سريعا يهوي على المطلوب لثأر، كما جعل النجوم التي تتجمــع في الظلام مثل المعزين الذين يجتمعــون على الحــزن في المأتم»[2].

---

[1] فوزي خضر : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، ص170.

[2] المرجع نفسه : ص171.

كما يصور ابن زيدون انتشار النجـــوم في السماء بشمله " الذي تشتت بسبب ما يمر به من أحداث عنيفة»[1]. وربط بين الليالي وأحداثها وما يتحلى به من فضائل.

كما يقول ابن زيدون :[2]

ما جالَ بَعدَكِ لحظِي في سنا القمَر إلا ذكرتُكِ ذِكرَ العَين بالأثر

ولا استطلت ذماءَ الليلِ مِن أسَفٍ إلا على ليلةٍ سَرَّت مع القِصَرِ

يقول ابن زيدون: ما تأملت بعدك ضوء القمر إلا ذكرتك كما تذكر العين الأشياء بعد أن تمسي أطلالا، ولا وجدت القليل الباقي من الليل طويلا إلا لأتشوق إلى ليلة كنت سعيدا فيها رغم قصرها.

ونلاحظ أن الشاعـــر قد استخدم مفردات من الطبيعـــة مثل: ضوء القمر، الليل فصنع منها صورة فنية بديعة، حيث أنشأ علاقة بين ضوء القمر وتذكر العين للأشياء بعد أن تمسي أطلالا، كما أنشأ علاقة بين القلة الباقية من الليل والتشوق إلى الليلة التي كان فيها سعيدا مـــع الحبيبة، حيث أصبحت تلك القلـــة الباقية من الليل طويلة وذلك لأن طيف الحبيبة قد زاره وأوقد أحاسيسه ومشاعره بعد أن كانت خامدة.

ويوظف ابن زيدون عناصر الطبيعة أيضا في قوله :[3]

وَلَئنْ أمْسَيْتُ مَحبُوساً، فَلِلْغَيْثِ احْتِبَاسُ

حيث استعمل ابن زيدون عنصر من عناصر الطبيعة وهو الغيث، فقد أنشأ علاقة بين حبسه ووجـــوده في السجـــن، وبين احتباس الغيث أو المطر الذي ينقطع خيره عن الناس، وهـــذا ما أعطى الصورة الجمال والرونق الذي يجعلها تؤثر في الملتقي وتحرك خياله ومشاعره وعواطفه.

---

[1] فوزي خضر : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، ص171.

[2] ابن زيدون : الديوان، ص106.

[3] المصدر نفسه : ص139.

وفي نفس السياق يقول :[1]

ولا أَلّفَتْ أيدي الرّبيعِ بدائعي، فَمِنْ خَاطِرِي نَثْرٌ وَمن زَهرِهِ لَقطُ

لقد وظف الشاعر في هذا البيت عنصر من عناصـــر الطبيعة وهو الربيع، حيث يقول أن الربيع قد ألف ما جئت به من بدائع، فمن ذهني أنثر البدائع وزهره يلتقطها، فقد أنشأ ابن زيدون علاقة بين شعره وزهر الربيع، حيث أن ذهنه يبدع الشعر وزهر الربيع يقوم بالتقاطها.

وعليه فإن الطبيعة كانت مصدرا مهما، أخذ منـــه ابن زيدون قسما كبيـــرا من صوره الفنية " حيث امتزجت تفاصيل الطبيعة بدقائق مشاعره فإذا بها تشاركه معاناته وتتوحد معه في منظومة رائعة من المشاركة الوجدانية، جعلت الصورة أكثر حيوية وأكثر تدفقا وجمالا"[2].

ب. الزمن :

لقد مثل الزمن مصـــدرا من مصادر الصورة الشعرية عند ابن زيدون حيـــث "استخدم لفظ الزمان وخلع عليه صفات إنسانية مثل السمـــاح، وصفات تجسيدية مثل الجمال، وحاوره وتحدث إليه، وهو بذلك يمثل خصوصية واضحة في صوره "[3]. ومثال ذلك قوله في إحدى قصائده مستعملا لفظة الدهر كمصدر للتصوير :[4]

إن قسى الدهر فللماء من الصخر انبجـــــــــــاس

فقد ألحق الشاعر بالدهر صفة القسوة، وهي صفة من صفات الناس ولكنه ربطها بالدهر لكي يبين سيطرة هذا الأخـــير على حياتـــه وتحكمه فيها. ثم يعود بعد ذلك إلى

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص157.

[2] فوزي خضر : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، ص171.

[3] المرجع نفسه : ص171.

[4] المصدر السابق : ص139.

التفاؤل، إذ لابد من الفرج، فالماء نفسه يتفجر من الصخر إذا حبس، فقد تنقلب قسوة الدهر إلى نعيم وسعادة وفرح.

وفي نفس السياق يقول :[1]

مَا عَلى ظَنّيَ بَاسُ، يَجْرَحُ الدّهْرُ وَيَاسُو

يرى ابن زيدون أن الدهر يجرح ويداوي، فقد جعله شيئا ماديا يستطيع أن يؤدي الإنسان، وفي نفس الوقت يستطيع أن يعالجه، وهذا ما جعل الصورة أكثر حيوية وجمالا.

كما استعمل ابن زيدون الزمان وجعله منبعًا من منابع الصورة فيقول :[2]

لعمركُمُ إنّ الزّمانَ، الذي قضَى بِشَتّ جَميعِ الشّملِ منّا، لمُشتَطّ

لقد ألحق الشاعـــر بالزمـــان صفة الجور والظلم وجعله قادرا على تفريق الشمل وهذا ما جعل البيت أكثر استقطابا للمتلقي، حيث أنه اعتاد أن يكون الظلم من الناس وليس من الزمان.

وبما أن الأيام وحدة من وحدات الزمـــن، فقد استخدمـــها ابن زيدون استخداما تصويريا وبلاغيا، فيقول :[3]

أمقتولة الأجفان! مالك والها؟ ألم تُرِكِ الأيـامُ نَجـــما هوى قبلـي؟
أقِلّي بُكاءً لست أوّلَ حُرَّةٍ طوت بالأسَى كشحا على مَضَض الثكل

يخاطب الشاعر والدته وهو موجـــود في السجن، ويقول لها أفاترة العينين مالك حزينة، ألم ترك الأيام نجـــما سقط قبلـــي؟ فأنا لست أول شخص رفيع المكانة والمنصب يهوي ويسقط، واستخـــدام ابن زيدون هنا للأيام لا يقتصر على بعدها الزمني فقط، وإنما

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص138.
[2] المصدر نفسه : ص155.
[3] المصدر نفسه : ص240.

يضيف إليها البعد البلاغي، حيث جعل للأيام القدرة على أن تري الناس أحداثا على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي نفس السياق يقول :[1]

مئونَ منَ الأيّامِ خمـــسٌ قطعْتـــُها أسِيراً، وَإنْ لم يَبدُ شَدٌّ وَلا قَمطُ

أتتْ بي، كما ميصَ الإناءُ من الأذى وأذهبَ ما بالثّوبِ منِ درنٍ مسطُ

لقد قضى ابن زيدون في سجنه أيامًا صعبة، وإن لم يقيد فيها ولكن معاناته كانت كبيرة، حيث أنشأ علاقة بين الأيام وما فعلته به، وبين فعل الأصابع التي تغسل الإناء وتنظفه ،وفعل بلّ الثوب وعصـــره، وهذا ما أعطى الصورة حركة وحيوية كبيرة، وذلك لأنه أعطى الأيام القدرة على الفعل، فمنح بذلك الصورة بعدا إنسانيا يوحي بقدر كبير من الدلالات والمعاني.

وقد استخدم الشاعر الليالي مصدرا لتصويره الفني، ومثال ذلك قوله : [2]

رَمَتني اللَيالي عَن قَسِي النَوائِبِ

فَما أَخطَأَتني مُرسَلاتُ المَصائِبِ

يقول ابن زيدون: أن الليالي قد رمتني بالمصائب القاسية فأصابتنـــي ولم تخطئني، حيث منح الليالي القدرة على الرمي وإصابة الأهـــداف، وهو بذلك أخرجها من حالتها الزمنية وأدخلها في حالة تجسيدية متمثلة في الرمي.

ونخلص مما سبـــق أن الزمن بمفرداتـــه المختلفة، كان مصدرا أساسيا في تشكيل ابن زيدون لكثير من صوره الفنيـــة، حيث منح الزمن صفات إنسانية وهذا ما جعله " فلكا

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص157.

[2] المصدر نفسه : ص198.

تدور فيه نجوم صوره المتألقة»[1]. التي سحرت المتلقي وجعلته في حالة من الدهشة والانبهار.

ج. المكان :

يحتل المكان موقعا بارزا في الشعر العربي منذ القدم، حيث عبر الشعراء عن تمسكهم به – المكان– وحنينهم وشوقهم إليه وفي بعض الأحيان عن نفورهم منه، « فعلاقة الشاعر بالمكان ذات أبعاد متعددة تستحضر الواقعي والخيالي والوهمي، ويكفي أن الشاعر يعيش في المكان على مستوى الوجود الحقيقي، ويسبح في المكان في عالمه الشعري، فيستحضر المكان في المعرفة الثقافية، ويقيم لنفسه وجودا فيه أو يعدل من صورة المكان الحقيقي»[2].

وبسبب هذه العلاقة المتينة للشاعر العربي بالمكان، فإننا نجد بعض النقاد القدامى يشبهون الأشعار بأنها « كالقصور المشيدة والأبنية الوثيقة الباقية على مر الدهور وبعضها كالخيام الموتدة التي تزعزها الرياح وتوهيها الأمطار، ويسرع إليها البلى، ويخشى عليها التقوض»[3].

ونظرا للقيمة الكبيرة التي يشغلها المكان عند الشاعر العربي فإن « كثيرا من النصوص الشعرية القديمة تفتتح بالوقوف على الأطلال، كبعض قصائد المعلقات التي نالت اهتماما كبيرا من النقاد والشراح القدامى والمحدثين، وما هذا الوقوف إلا إشارة واضحة للعلاقة القوية بين الشاعر العربي والمكان فهو لصيق به مهما غاب عنه، أو أصابه التغيير، أو انتقل إلى غيره، يظل يختزنه في ذاكرته، ويتغنى به»[4].

---

[1] فوزي خضر : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، ص180.

[2] منصور جريدي الثبيتي : شاعرية المكان، (ط1)، شركة دار العلم للطباعة والنشر، السعودية، 1992م، ص10.

[3] ابن طباطبا العلوي : عيار الشعر، تح: عباس عبدالستار، (ط 1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1982م، ص13.

[4] أمل بنت محسن سالم رشيد العميري : المكان في الشعر الأندلسي، عصر ملوك الطوائف، أطروحة دكتوراه، مخطوط، جامعة أم القرى، 2006م، ص9.

وقد كان المكان بمفرداته المختلفة مصدرًا من مصادر التصوير في شعر ابن زيدون، حيث " أن شاعرنا عاش في خضم مجتمع يعيش أيامه بأفراحها وأتراحها، فنراه في البلاط وزيرا، وفي مجالس الأدب شاعرا، وفي الحب منافسا، وفي السجن قابعا، وفي الغربة بعيدا ، وفي السياسة محنكا"[1].

ولذلك يقول عنه عدنان محمـــد: " لم يستطع أي شاعر أندلسي أن يتجاوز حدود المكان الأندلسي إلى أرض العرب المترامية حتى جاء ابن زيدون، فتمكن بشاعريتة الفذة وقصة حبه الفريدة مع ولادة، والقصـــائد التي عبرت عن هذه التجربة الملتهبة، فكانت نموذجا خلابا للألم وهو يتحول إلى متعة فنية، ولقسوة الواقع وهو يرتسم في قصائد تندى رقة وتتوهج شفافية"[2].

يقول ابن زيدون في حنينه إلى مدينة قرطبة :[3]

أَقُرطُبَةُ الغَرّاءَ! هَل فيكِ مَطمَـــعُ؟

وَهَل كَبِـدٌ حَـــرّى لِبَينَكِ تُنقَـعُ؟

وَهَـــل لِلَياليكِ الحَمـــيدَةِ مَرجِـــعُ؟

إِذِ الحُسنُ مَرأىً فيكِ وَاللَهوُ مَسمَعُ

وَإِذ كَنَفُ الدُنيـا لَدَيكِ مُوَطَّـــأُ

لقد جعل الشاعر في هذا المقطع قرطبة حبيبة تفارق وتبتعد عنه، ثم جعلها الفلك الذي تدور فيه صوره، فقرطبة عامرة، ولياليها جميلة، واللهو فيها منتشر، وجوانب الدنيا فيها سهلة المنال.

---

[1] ساهرة عليوي حسين العامري : المكان في شعـــر ابن زيدون، رسالـــة ماجستير في آداب اللغة العربية، مخطوط، جامعة بابل، 2008م، ص16.

[2] عدنان محمد غزال : مصادر دراســـة ابن زيدون، (دط)، مؤسســـة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2004م، ص3.

[3] ابن زيدون : الديوان، ص198.

كما عبـــر الشاعـــر عن حنينه إلى المواضـــع واستخدمها كمصـــدر من مصادر الصورة الفنية، فيقول :[1]

أَأَنسى زَماناً بِالعِقابِ مُرَفَّلـاً

وَعَيشاً بِأَكنافِ الرُصافَةِ دَغفَلا

وَمَغنىً إِزاءَ الجَعفَرِيَّةِ أَقبَلا

لَنِعمَ مَرادُ النَفسِ رَوضاً وَجَدوَلا

وَنِعمَ مَحَـلُّ الصَبـوَةِ المُتَبـوَّأُ

يقول ابن زيـــدون: كيف لي أن أنسى زمانا هنيئـــا قد عشتـــه بالعقاب والرصافة ومجلسا عامرا قرب الجعفرية؟ فنعم مطلب النفس قرب روض وجدول ونعم مقام الشوق.

فقد جـــعل " الزمـــان ناعما هادئـــا في العقـــاب، وجـــعل العيـــش مخصبا في الرصافة، وجعل مكان المتعة واللهو يقبل عليـــه، وعلى أصحابه – عند الجعفرية – "[2]. وهذا ما أعطى الصورة جمالا ورونقها منقطع النظير.

وقد كان لمظاهر العمـــران المختلفة دور في تشكيل البناء التصويري لدى ابن زيدون ومثال ذلك قوله :[3]

وَأَحسِن بِأَيّامٍ خَلَـونَ صَوالِـحٍ

بِمَصنَعَةِ الدولابِ أَو قَصرِ ناصِحِ

تَهُزُّ الصَبا أَثنـاءَ تِلكَ الأَباطِـحِ

صَفيحَةَ سَلسالِ المَـوارِدِ سائِـحِ

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص ص 199، 200.

[2] فوزي خضر : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، ص182.

[3] المصدر السابق : ص201.

تَرى الشَمسَ تَجلو نَصلَها حينَ يَصدَأُ

يتذكـــر الشاعـــر الأيام التي قضاها في مصنعة الدولاب وقصر ناصح وهما موضعان في قرطبـــة، حيث الريـــح الشرقية الناعمة التي تهب فيها فوق البطاح، فتهز صفحة المياه الجارية من الينابيـــع، والشمس المنعكسة فوقها تبدو وكأنها تجلوها لتزيل الصدأ عنها.

يتضح ممـــا سبق أن ابن زيدون قد استخدم المكان بمفرداته المختلفة من مدينة ومعاهد، وعمران، وجعل منه مصدرا من مصادر الصورة الفنية لديه، وقد تميزت صوره بالجمال والبراعة والقدرة الكبيرة على مزج الخيال بالواقع، وهذا ما جعل صوره الأساس الذي قامت عليه معظم صور الشعراء من بعده حيث قاموا بتقليده والنسخ على منواله.

5. أنماط الصورة عند ابن زيدون :

يرى النقاد والدارسون في مجال تقسيم الصورة، أنها تتعلق بالحاسة فلذلك الأولى في دراسة الصورة أن ننطلق من هذا المبدأ، معتمدين في ذلك على أنواع الحواس.

و"الصورة الحسية هي المنبع الذي ينطلق منه نهر التصوير الفني فتمتزج في مجراه عواطـــف الإنسان بمفردات الحس"[1]. وهـــي كذلك " الصورة القائمة على إدراك الأشياء عن طريق إحـــدى الحواس، سواء كانت هذه الأشياء من الأمور المحسوسة أو الوجدانية"[2]. وهذه الحواس تتمثل في: البصر، السمع، الذوق، الشم.

وقد استخـــدم ابن زيدون هذه الأنمـــاط وذلك ليحقق التميز للبناء التصويري في سجنياته وينقل تجربته بصدق ووضوح.

---

[1] فوزي خضر : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، ص188.

[2] عبد اللطيف محمد السيد الحديدي : الصورة الفنية في شوقيات حافظ، دراسة تنظيرية تطبيقية، (ط 1)، دار المعرفة للطباعة والتجليد، المنصورة، مصر، 1997م، ص228.

أ. الصورة البصرية :

إن الصورة البصـــرية هي الصورة التـــي تعتمد "على حاسة البصر للدخول من خلالها إلى شعور المتلقي وفكره، وتطلق طاقتها الإبداعية ليحلق خيال المتلقي فيتصور أنه يبصر تلك الصـــورة بكل جزئياتها "[1]. وقد استخـــدم ابن زيدون الصورة البصرية في مواضع مختلفة من سجنياته، ومثال ذلك قوله :[2]

ألمْ يأنِ أنْ يبكي الغمامُ على مثلي، ويطلبَ ثأرِي البرقُ منصلتَ النصلِ

يصور الشاعر نفســـه في هذا البيـــت أنه ذو مكانة كبيرة، فالغمام يجب أن يبكي عليه وتسيل دموعه والبرق يجب أن يطلب ثأره، وهذه الصورة تعتمد على البصر وسيلة لوصولها إلى المتلقي.

وفي صورة أخـــرى يشبه ابن زيدون قوة وعـــزم ممدوحه، بالهلاك الكامن في الأعين الناعسة، وأنه عند تأمله يسطع بشره، كما يسطع الحسام بعد الصقل، فيقول :[3]

وذو تدرإٍ للعزمِ، تحـــتَ أناتِـــهِ، كمُونُ الرّدى في فَترةِ الأعينِ النُّحلِ

يرفُّ، على التّأميلِ، لألاءُ بشرِهِ، كما رَفّ لألاءُ الحُسامِ على الصّقْلِ

كما يقول :[4]

وبائنٍ منْ ثناءٍ، حسنُهُ مثلٌ وَشْيُ الْمَحَاسِنِ مِنْهُ مُعْلَمُ الطُّرَرِ

يشبه ابن زيدون في هذا البيت أدبه بالثوب الموشى، وذلك كناية عن الجمال الذي يتمتع به، وهذه الصورة لا يمكن أن تدرك وتفهم إلا من خلال حاسة البصر.

---

[1] فوزي خضر : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، ص191.

[2] ابن زيدون : الديوان، ص239.

[3] المصدر نفسه : ص240.

[4] المصدر نفسه : ص109.

وفي صورة أخرى يجعل ابن زيدون من نفسه صاحب مجد ومكانة كبيرة، حيث أن غيابه يؤدي إلى جعل المجد في حالة نوم، فيقول :[1]

فتأمّلْ ! كيفَ يغشَى مقلةَ المجدِ النّعاسُ؟

وقد استخدم ابن زيدون من الألفاظ الدالة على البصر، لفظ (تأمل) حيث أن التأمل يكون عن طريق حاسة البصر، كما استخدم كلمة (مقلة) والتي تعني العين.

ومن بديع الصورة البصرية قول ابن زيدون :[2]

فَإِنّي رَأَيتُ الشَمسَ تُحصَنُ بِالدَجــنِ

وَما كُنتُ إِلّا الصارِمَ العَضبَ في جَفنِ

أَوِ اللَيثَ في غابٍ أَوِ الصَقرَ في وَكنِ

أَوِ العِلقَ يُخفى فـي الصِوارِ وَيُخبـأُ

لقد جعل ابن زيدون نفسه في هذه القطعة في قمة التباهي والنرجسية، حيث شبهها بالشمس التي تسجن في العتمة، والسيف القاطع في الغمد، والأسد في الغاب، والصقر في العش، والعلق الذي يُخْفى ويخبأ، وكل هذه الصور لا يمكن أن يدركها المتلقي إلا عن طريق حاسة البصر، فهي التي تقربها إليه وتجعله قادرا على فهمها.

وتتجلى براعة ابن زيدون في رسم كثير من الصور البصرية في سجنياته، وهذا ليس غريبا "إذ أن البصر هو المدخل القريب إلى المشاعر والأحاسيس الإنسانية»[3].

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص140.

[2] المصدر نفسه : ص204.

[3] فوزي خضر : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، ص193.

ب. الصورة السمعية :

هي الصورة التي تعتمد على حاسة السمع، ويكون الصوت وسيلتها، ولحاسة السمع أهمية كبيرة في تشكيل الصورة ذهنيا، ولذلك فقد استخدمها ابن زيدون في سجنياته ومثال ذلك قوله :[1]

أبا الحزم! إني في عتابك مائِلٌ عَلى جانِب تأوي إليه العُلا سهْل
حمائمُ شكوى صَبَّحَتكَ هَوَادِلا تناديكَ مِنْ أفنان آدَابيَ الهُـدل

يصـــور ابن زيدون عتابـــه لأبي الحزم في شكل حمائم شكوى هادلة تناديه من أغصان متدلية، وهذه الصورة إنما تدرك عن طريق حاسة السمع، حيث أن العتاب يكون بالكلام الذي يدرك بالسمـــع، وكذلك هديل الحمام والشكوى فكلاهما يدركهما المتلقي عن طريق حاسة السمع.

وفي صورة أخرى يجعـــل الشاعر من الثناء على ممدوحـــه، مثل ثناء الروض بنسيمه على الندى فيقول :[2]

وما لي لا أثني بآلاءِ مُنعِمٍ إذا الرَّوضُ أثنى بالنَّسِيمِ على الطلِّ

حيث أن الثناء يكون بالكلام، والكلام يدرك عن طريق حاسة السمع، وقد نجح الشاعر بذلك في رسم صورة سمعية بديعة.

كما يقول ابن زيدون:[3]

واستوفر الحظ من نصح وصاغية كلاهما العلق لم يوهب، ولم يعر

لقد صور الشاعر نصائح وتوجيهات ممدوحه مثل العلق النفيس الذي لا يعار ولا يوهب، ومن المعروف أن النصائح والتوجيهات تدرك عن طريق حاسة السمع.

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص241.
[2] المصدر نفسه : ص242.
[3] المصدر نفسه : ص110.

ومما سبــق فإن الصــورة السمعية قد قدمــت إضافات فنية كبيرة إلى البناء التصويري في سجنيات ابن زيدون، وذلك لأنها فتحت أمامه مساحات ثرية من التصوير.

ج. الصورة الشمــية :

وهي الصورة التي "تعتــمد على ما يمكن استقباله بحاسة الشم، ومجالها الروائح وما يدل عليها من كلمات مثل الطيب والأريج والعنبر والمسك والعطور وما شابه ذلك حيث تبنى الصورة على ما يمكن شمه"[1].

ومن أمثلة هذه الصورة في سجنيات ابن زيدون قوله :[2]

فمــالك لا تختصني بشفاعــة يلوح على دهري لمبسمها غبط
يفي بنسيم العنبر الورد نفحها إذا شعشع المسك الأحم به خلط

يصور ابن زيدون شفاعــة صديقــه له، برائحة النسيم المحمل بعبق الزعفران وبرائحة المسك الأسود بعد خلطه، وقد استخدم الشاعر كلمات مرتبطة بحاسة الشم وهي: العنبر، نفحها، المسك.

كما يقول ابن زيدون أيضا:[3]

بَنى جَهْوَرٍ! أحْرَقْتُمُ بِجَفائِكُمْ جنانــي، ولكــنّ المدائحَ تعبقُ
تعدّونَني كالعنبرِ الوردِ، إنّمَا تطيبُ لكمْ أنفاسُهُ حينَ يحرقُ!

يخاطب ابن زيدون بني جهور قائلا: أحرقتم بجفاءكم قلبي، إذا أنكم تعتبرونني كالعنبر المفضــل، إنما تطيب لكــم رائحته حين يحــرق، وقد استخدم الشاعر هنا كلمات تتعامل معها حاسة الشم مثل قوله (تعبق) وقوله (العنبر الورد).

---

[1] فوزي خضر : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، ص197.
[2] ابن زيدون : الديوان، ص159.
[3] المصدر نفسه : ص 196.

وفي صـــورة أخرى يشبـــه ابن زيدون أدبه برائحة المسك التي لا تزيلها الرياح وذلك دلالة على تأثير أدبه وانتشاره، فيقول:[1]

يُسْتَوْدَعُ الصُّحْفَ لا تَخْفَى نَوافِحُهُ إِلاَّ خَفَاءَ نَسِيمِ المِسْكِ في الصُّرَرِ

كما يجعل ابن زيـــدون في قصيدة أخرى الرضا مثل المسك ذو الرائحة العطرة فيقول:[2]

إذْ خِتَامُ الرّضَا المُسَوَّغِ مِسْكٌ ومزاجُ الوصالِ منْ تسنيمِ

فقـــد لعبت الصورة الشمية دورا كبيـــرا في سجنيات ابن زيـــدون إذ أنها منحت قصائده جمالا وحسنا ورونقا منقطع النظير.

د. الصورة الذوقية :

وهي التي تعتمد على كل ما يتذوقه الإنسان من طعام وشراب، ومن الأمثلة على هذا النمط من الصورة الفنية قول ابن زيدون :[3]

هل من سبيلٍ، فماءُ العتبِ لي أسنٌ إلى العُذُوبَةِ مِنْ عُتْباكَ والْخَصَرِ؟

لقد جعل ابن زيدون من اللـــوم بمثابة الماء العكـــر، الذي يبحث له عن العذوبة والبرودة في رضى ممدوحه، وقد بنـــى الشاعر صورته على مشروب وهو الماء، فرسم بواسطة صورة ذوقية بديعة.

وبما أن محنة السجن تعلم الإنسان وتجعله يدرك أشياء لم يكن يعرفها من قبل فقد أدرك ابن زيدون أن قسوة الدهر لا بد أن تزول وأنه لا محالة سيخرج من سجنه، فالماء نفسه يتفجر من الصخر إذا حبس، فيقول :[4]

---

[1] ابن زيدون: الديوان، ص109.

[2] المصدر نفسه : ص280.

[3] المصدر نفسه : ص110.

[4] المصدر نفسه : ص139.

إن قسا الدهر فللماء من الصخر انبجـــــــاس

وقد استخدم الشاعــر في هذه الصورة ما يــدل على الذوق في قوله الماء، وقوله انبجاس والذي يقصد به تفجر المياه.

وفي قصيدة أخرى يقول :[1]

ذمَمْتُ إذاً عهدَ الحياةِ، ولم يزَلْ مُمِرّاً، على الأيّامِ، طَعمُهَا المحَلي

يؤكد ابن زيدون في هذا البيت أنه لا زال على العهد الذي قطعه لأبي الحزم ولم يتخل عنه، وأنــه إذا فعل ذلك فإنــه يذم الحياة الجميلة، كما أن طعمها الحلو سيصبح مرا، ونلاحظ أن الشاعر قد اعتمد على أشياء ذوقية في رسم صورته مثل: طعمه المحلي وممرا.

كما يشبه ابن زيدون اللهو بالخمر، ويجعله معادلا موضوعيا له، كما يجعل زوال الخمر صورة للجد والعمل فيقول :[2]

فَفي يَومِنا خَمرٌ وَفي غَدِهِ أَمرُ

وقد استخدم الشاعر هنا نوعا من الشــراب وهو الخمــر، فرسم بواسطته صورة ذوقية فريدة.

لقد وظف ابن زيدون في سجنياته الكثير من الصــور الذوقية، وذلك لأن الطعام والشراب يشكلان جانبا مهما من حياة الإنسان لا يستغني عنهما حتى في السجن.

هــ. الصورة اللونيـــــة :

استخدم ابن زيدون اللون في كثير من صوره، ومثال ذلك قوله :[3]

بَلَغتُ المَدى، إذ قَصّروا، فقلوبهمْ مكامِنُ أضغانٍ أساوِدُهَا رُقط

---

[1] ابن زيدون: الديوان، ص 242.

[2] المصدر نفسه : ص197.

[3] المصدر نفسه : ص158.

يصور ابن زيدون في هذا البيت قلوب الحساد المليئة بالحقد، بسم الحياة المرقطة أي التي في لونها سواد وبياض، فقد استخدم الشاعر لفظ (رُقط) وشكل من خلاله صورة لونية بديعة.

كما يقول في قصيدة أخرى :[1]

وتغنى عنِ المدحِ، اكتفاءً بسروِها غنى المقلةِ الكحلاء عن زينة الكحلِ

يقــول ابن زيــدون مادحا ابن جهور: تستغني عن المدح اكتفاء بما عنــدك من محاسن، تماما كما تستغني العين الكحــلاء عن زينة الكحــل، وقد استخدم الشاعر اللون الأسود في قوله (كحلاء)، وقد نجح بذلك في رسم صورة لونية جميلة ورائعة.

ويجعل ابن زيدون من النعمة لباسًا يرتدى فيقول :[2]

وَالبَس مِنَ النِعمَةِ الخَضراءِ أَيكَتَها ظِلّاً حَراماً عَلى الآفاتِ وَالغِيَرِ

حيث استخدم لفظ (خضراء) وشكــل من خلالــه صورته الفنيــة في قالب بديع وجميل.

وقد وظف ابن زيدون الألوان مستفيدا من دلالتها، ومشكلا من خلالها صور فنية بديعة ورائعة، ساهمت في بقاء شعره خالدا رغم مرور الزمن.

و. الصورة الخطيــة :

من المعروف عن ابن زيدون أنه كان يستقي مفردات معجمه الشعري مما يحيط به، وبما أنه كان شاعرا وكاتبا ووزيرا فقد استخدم في شعره مفردات الخط والكتابة وذلك في صور تمتاز بالتفرد والبراعة، حيث يقول :[3]

إذا ما كتابُ الوَجدِ أشكَلَ سَطْرُهُ فمنْ زفرَتي شكلٌ ومن عبرَتي نقط

---

[1] ابن زيدون: الديوان، ص241.

[2] المصدر نفسه : ص111.

[3] المصدر نفسه : ص156.

يقــول الشاعــر أنه إذا كان كتاب الحب فيــه التباس على القراء، وصار صعب القراءة " فإن حالــة الشاعــر توضحه، إذ أن لحروفه شكلا من زفراته ونقطا من دموعه تميز الحــروف المعجــمة عن المهملة فيه"[1] ويلاحظ أن ابن زيدون قد استخدم مفردات الخط مثل : كتاب، أشكل، سطره، شكل، نقط، ورسم من خلالها صورة فنية بديعة.

وفي صــورة أخرى يشبه ابن زيدون الطريقــة التي تُمحَى بها الخطايا، بالخــط عندما يمحى، فيقول :[2]

وَحِلمُ امرِىء تَعفُو الذّنوبُ لَعفوِهِ وتُمحَى الخطايا مثلمَا محيَ الخطّ

وقد استخدم الشاعر مفردات مثل: محــي، الخط، وجعلها ركائز تقوم عليها هذه الصورة الخطية.

كما يقول ابن زيدون :[3]

إذا أشْكَلَ الخَطْبُ المُلِمُّ، فإنه وَآراءهُ، كالخَطّ يُوضَحُ بالشّكلِ

يقول الشاعر أنه إذا تعقدت المصيبة، فإن آراء ممدوحه هي بمثابة التشكيل الذي يوضح المعنى ويزيل كل إشكال والتباس، وقد استخدم الشاعر من مفردات الخط والكتابة: الشكل، الخط، وشكل من خلالها صورة خطية في غاية الجمال والروعة.

كما يفتخر ابن زيدون بأدبه، فيرى أن كل صحيفة تفتخر وتختال به، كما تختال الفتاة بثوبها، فيقول :[4].

مِنْ كُلِّ مُخْتَالَةٍ بِالحِبْرِ رَافِلَةٍ فِيهِ اخْتِيالَ الكَعابِ الرُّؤْدِ بِالحِبَرِ

---

[1] فوزي خضر : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، ص200.

[2] ابن زيدون : الديوان، ص 159.

[3] المصدر نفسه : ص240.

[4] المصدر نفسه : ص110.

يرسم ابن زيدون في هذه الأبيات صورة خطية جميلة مستعملا عدة مفردات مثل: مُخْتَالَة ويقصد بها الصحيفة، الحبر، حيث نجح في استخدام المفردات والربط بينها بكل براعة، وهذا أمر لا يقوم به كل الشعراء، وإنما المتميزين منهم فقط.

ثانيا : أدوات تشكيل الصورة في سجنيات ابن زيدون

بعد أن استعرضنا مصـــادر الصورة وأنماطـــها في سجنيات ابن زيدون، آن لنا الأوان أن نبحث موضوع الأدوات التي استخدمـــها في تشكيل صورته، ولذلك سنقف عند استخدامه لألوان البيان والبديع، لنرى إلى أي مدى تتداخل ألوان البيان والبديع في تشكيل الصورة الفنية لديه؟

1. الصور البيانية :

أ. التشبيه :

التشبيه في اللغة : التمثيل

وأما في الاصطلاح فله عدة تعريفات عند علماء البلاغة، فمنهم من يعرفه بأنه : "عقد علاقة مقارنـــة بين طرفيـــن أو أكثر، لاتحادهما أو اشتراكهما في صفة أو حالة أو مجموعة من الصـــفات والأحـــوال، وقد تستند هذه العلاقة إلى مشابهة حسية أو حكم ومقتضى ذهني"[1].

أما المبرد فيقول عنـــه : " اعلم أن للتشبيه حد لأن الأشياء تشابه من وجوه، فإنما ينـــظر إلـــى التشبيه من أين وقع، فإذا شبـــه الوجه بالشمس والقمـــر فإنما يراد بالضياء والرونق ولا يراد به العظم والإحراق"[2].

---

[1] علي بن عبد العزيز الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط 2)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1951م، ص 271.

[2] أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : الكامل في اللغة والأدب، تح : محمد أحمد الدالي، ج 2، (ط3)، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1997م، ص 984.

في حين يعتبر أبو الهلال العسكـــري أن التشبيه وصف فيقول: « التشبيه الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، ناب منابه أو لم ينب، وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغيـــر أداة التشبيه وذلك قـــولك " زيـــد شديد كالأسد" فهذا القول هو الصواب في العرف وداخـــل في محمود المبالغـــة وإن لم يكن زيد في شدته كالأسد على الحقيقة»[1].

وأمـــا فـــي العصـــر الحديث فقد أُعتبر التشبيـــه عنصرا من عناصر الصـــورة الشعرية، حيث يقول عنه عز الدين إسماعيل « قد يصل التشبيه في بعض الأحيان إلى درجة من الخصب والامتلاء والعمق إلى جانب الأصالة والابتداع، بحيث تمثل الصورة وتؤدي دورها»[2].

وعليه فإن للتشبيه دور بارز وعميق في بيان المعاني واتساع مدلولاتها وجمال موقعها وأثرها في النفس، كما أن للتشبيه أثر كبير في توضيح المبهم والغامض وذلك لأنه يعتمد على الإيجاز والوضوح والمبالغة.

وقـــد وظف ابن زيدون التشبـــيه في سجنياته وذلك ليزيدها جمالا ورونقا، ومن تشبيهاته قوله :[3]

لَهُ مَبسِمٌ عَذبٌ وَخَدٌّ مُوَرَّدُ
وَكَفٌّ بِحِنّاءِ المُـــدامِ تُقَنَّأُ

---

[1] أبـــو هـــلال العسكـــري : كتاب الصناعتين، تـــح : محمد أبو الفضل إبراهيـــم وعبد المجيد قطماش، (دط)، دار الجيل، 1988م، ص461.

[2] عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، (ط 3)، دار الفكر العربي، (دت)، ص 143.

[3] ابن زيدون : الديوان، ص201.

حيــث وظف ابن زيدون التشبيه، وذلك لأنه يشبه جــو قرطبة بصفات حسيــة للإنسان، فقد جعل لقرطبة فــما عذبا وخدًا موردا وشبــه المدام بالحناء بإضافة المشبه (المدام) إلى المشبه به (حناء) على سبيل التشبيه البليغ .

ومن روائع تشبيهات ابن زيدون قوله :[1]

وَما كُنتُ إِلّا الصارِمَ العَضبَ في جَفنِ

أَوِ اللَيثَ فــي غابٍ أَوِ الصَقرَ في وَكنِ

حيث استعمل التشبيه البليغ، وذلك لأنه شبه نفسه بالسيف القاطع في غمده والأسد في الغابة، والصقر في العش، وقد نجح ابن زيدون من خلال هذا التشبيه واستحضار الحيوانات من أن يعطي قيمة ومنزلة كبيرة لنفسه.

كما يقــول :[2]

وَوِدادي لَكَ نَصٌّ لمْ يخالِفْهُ قياسُ

فقد وظف ابن زيدون في هذا البيت التشبيه البليغ، حيث شبه وداده لأبي حفص بالنص، أي السند المقطوع بصحته الذي لا يخالفه القياس.

كما وظف ابن زيدون التشبيه التمثيلي في قوله :[3]

كأنّ فُؤادي، يَوْمَ أهوَى مُوَدِّعاً هوَى خافقاً منه بحيث هوَى القرْط

حيث يشبــه قلبه الذي أصابه العشــق في حالــة الوداع بالقرط الذي يهوى من صاحبته، وذلك ليصور حالة الخوف الذي أصابه.

ومن بدائع تشبيهات ابن زيدون البليغة أيضا قوله :[4]

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص204.

[2] المصدر نفسه : ص139.

[3] المصدر نفسه : ص156.

[4] المصدر نفسه : ص280.

إِذ خِتامُ الرِضا المُسَوَّغِ مِسكٌ وَمِزاجُ الوِصالِ مِن تَسنيم

حيث شبـــه الرضى وهـــو شعور داخلـــي بالمسك وجعل ختام الرضى مثل ختام المسك، كما أنه شبه طعم الوصل بماء الجنة وذلك بسبب ما فيه من لذة ومتعة.

ويقول ابن زيدون أيضا :[1]

نارُ بَغيٍ سَرى إِلى جَنَّةِ الأَمنِ لَظاها فَأَصبَحَت كَالصَرَيمِ

لقد شبه في هذا البيت الظلم الذي أصابه بالجنة الآمنة التي أصبحت مظلمة مثل الليل، وهذا دليل على انتشار الظلم والفساد في مجتمعه.

كما يوظف ابن زيدون التشبيه البليغ في قوله : [2]

فَهوَ رَيحانَةُ الجَليسِ وَلا فَخرَ وَفيهِ مِزاجُ كَأسِ النَديمِ

حيث يشبه الشكر والثناء برائحـــة الجليس الطيب، وذلك لأن الشكر والثناء الذي يرسله ابن زيدون من سجنه وهو بمثابة الصديق والجليس الطيب لمن يصل إليه.

ومن روائع تشبيهاته الضمنية قوله :[3]

إنْ طالَ في السّجنِ إيداعي فلا عجب! قد يودَعُ الجفنَ حدُّ الصّارمِ الذكرِ

يشبه ابن زيدون في هذا البيت طول وجوده في السجن، بالسيف القاطع الذي يبقى لفترة طويلة في غمده، ولكن ذلك لا يؤثـــر عليـــه ولا يفقده شيئا من حسناته والتشبيه هنا يفهم من السياق دون أركانه المعروفة.

وفي نفس السياق يقول :[4]

قَدْ كُنْتُ أَحْسبُنِي وَالنَّجْمَ فِي قَرَنٍ ففيمَ أصبحتُ منحطّاً إلى العفرِ؟

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص282.

[2] المصدر نفسه : ص282.

[3] المصدر نفسه : ص108.

[4] المصدر نفسه : ص 109

فقد شبه نفسه بالنجم في مكانته وعلوه، حيث نجده يبالغ في ذلك كثيرا وذلك لأن النجم لا يمكن أن يتساوى مع الإنسان في المكانة والعلو والرفعة، مهما حاول الإنسان فعل ذلك.

ويشبه ابن زيدون نفسه بالجواد فيقول :[1]

جوادٌ، إذا استنّ الجيادُ إلى مدىً تمطّرَ فاستولى على أمدِ الخصلِ

حيث استعمل ابن زيدون في هــذا البيت التشبيه البليغ، حيث شبه نفسه بالجواد السريع والقوي الذي يدرك الغاية ويفوز بالرهان.

ومن روائع تشبيهاته قوله :[2]

وما زالَ وَعدُ النّفسِ لي منكَ بالمُنى كأنّي به قد شمتُ بارقةَ المحلِ

حيث شبه الشاعر في هــذا البيت، أمنيته في العفو عنه من طرف أبي الحزم بن جهور بالسحابة التي تبرق ولا تمطر، وذلك ليبين لنا أن أمله في عفو أبي الحزم لا فائدة منه، فهو مثل السحابــة التي ينتظرهــا الناس طويلا ولكنها تبرق بدون أن تمطر، وكأن الشاعر يقول أنه لا فائدة من أبي الحزم فهو مثل السحابة التي لا تمطر ولا فائدة منها.

كما يقول ابن زيدون :[3]

تعدّونَني كالعنبرِ الوردِ، إنّمَا تطيبُ لكمْ أنفاسُهُ حينَ يحرقُ!

فقد شبه نفسه بطيب العنبــر، الذي تطيب رائحته حين يحرق، وذلك لأن قصائد ابن زيدون يزداد حسنها وجمالها كلما زاد عذابه في سجنه وكذلك العنبر فكلما حرق كانت رائحته طيبة وعطرة، والتشبيه هنا مفصّل توفرت فيه أركانه الأربعة.

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص241.

[2] المصدر نفسه : ص 241

[3] المصدر نفسه : ص 196.

إن تشبيهات ابن زيدون كثيرة، ومن الصعب حصرها والوقوف عند خباياها، فقط يمكننا أن نقول أنه قد أبدع في تشبيهاته في صور وصفية متعددة، وقد ساعده في ذلك ثقافته الواسعة وإطلاعه على الأدب العربي القديم، يضاف إلى كل ذلك قدرته المتميزة على استخدام المعاني وتوظيف الألفاظ بطريقة دقيقة ومحكمة.

ب. الاستعارة :

الاستعارة هـــي استعمال الكلمـــة في غير ما وضعت له في أصـــل اللغة لعلاقة المشابهة، وإذا استعرضنا كتب النقـــد والبلاغة فإننا سنجـــد عددًا كبيرًا من التعريفات للاستعارة، وسنكتفي بذكر أهمها.

يعرفها الجاحظ فيقول : " هي تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"[1].

وأما الآمدي فيقول عنها: "إنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يشبهه في بعـــض أحوالـــه وكان سببا مـــن أسبابه، بمعنى التقارب بين المستعار منه والمستعار له"[2].

ويقول ابن الأثير عنـــها: " نقل المعنى من لفظ إلى لفظ، لمشاركة بينهما، مع طي ذكر المنقول إليه"[3].

وقد اهتـــم القدمـــاء بالاستعـــارة باعتبارها من أبرز أدوات الشاعـــر في تكوين صوره، فأعلوا من قيمتها وأظهروا فضلها، حيث أنها تتميز بقدرة كبيرة على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر والانفعالات، حيث تعجز اللغة العادية عن فعل ذلك.

---

[1] أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ : البيان والتبيين، تح : عبد السلام هارون، ج 1، (دط)، مكتبة الخانجي، 1985م، ص157.

[2] أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، الموازنة، تح : محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1959م، ص250.

[3] ابن الأثير: المثل السائر، تح : أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ج2، (ط1)، مكتبة النهضة، مصر، 1960م، ص83.

ولما كانت الصورة الاستعارية ذات صلة وثيقة بالتجارب الإنسانية، فقد استخدمها ابن زيدون بكثرة، ومن ذلك قوله :[1]

تَنَشَّقَ مِن عَرفِ الصَبا ما تَنَشَّقا

فقد وظـــف الشاعـــر الاستعارة المكنية، حيث جعل من الصبا نسمة وريحا عليلا يتنشق وحذف الهـــواء العليل (النسمة) وترك ما يـــدل عليها وهو التنشق وهذا ما أعطى الصورة جمالا ورونقا لا تستطيع اللغة العادية أن تعطيها إياه.

وقد تحدث ابن زيدون عن الدنيا ومصائبـــها، التي لا تترك الإنسان دون أن تفسد عليه حياته، فيقول :[2]

رَمَتني اللَيالي عَن قَسِيِّ النَوائِبِ

فقد استعمل الاستعارة المكنية، حيث شبه الليل بر جُل يرمي بسهامه، فقد أعطى الليل صفة مادية مثل الإنسان فهو يرمي ويضرب، وقد حذف الرجل وترك قرينة دالة عليه وهي صفة الرمي.

كما يقول ابن زيدون :[3]

لَبِسنا الصِبا فيها حَبيراً مُنَمنَما

حيث شبه الصبا بالإنسان وجعله يرتدي لباســـا، فقد ذكـــر المشبه وهو الصبا وحذف المشبه به وهو الإنسان، وتـــرك دلالة وقرينه على ذلك وهي (اللباس) على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي نفس السياق يقول :[4]

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص197.

[2] المصدر نفسه : ص 198.

[3] المصدر نفسه : ص 202.

[4] المصدر نفسه : ص 203.

كَساها الرَبيعُ الطَلَقُ وَشيَ الخَمائِلِ

يشبه ابن زيدون الربيـــع بالإنسان وأعطـــاه صفة الكسو، حيث ذكر المشبه وهو الربيع وحذف المشبه به وهو الإنســـان، وترك قرينة دالة على ذلك وهي (الكساء) وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

كما يقـــول :[1]

مَا عَلى ظَنّيَ بَاسُ، يَجْرَحُ الدّهْرُ وَيَاسُو

لقد جعل الشاعر الدهـــر قادر على الجرح مثل الإنسان أي أنه قد أعطاه صفات إنسانية، فقد ذكر المشبه وهو الدهر، وحذف المشبه به وهو الإنسان، وترك ما يدل عليه وهو (الجرح) وذلك على سبيل الاستعارة المكنية دائما.

وفي نفس الرؤية يقول :[2]

وَعَسَى أنْ يَسمحَ الدّهرُ، فقدْ طالَ الشِّماسُ

فقد شبه ابن زيدون في هذا البيت الدّهر بالإنسان وأعطاه السلطة لكي يسمح ويرفض، حيث ذكر المشبه وهو الدّهر وقام بحذف المشبه به وهو الإنسان وترك ما يدل عليه وهو (السماح).

وفي حديثه عن الدّهر يقول ابن زيدون :[3]

وَهُوَ الدَهرُ لَيسَ يَنفَكُّ يَنحو بِالمُصابِ العَظيمِ نَحوَ العَظيمِ

يقول ابن زيدون أن الدّهر لا ينفك يميل بالمصيبة العظيمة نحو العظيم من الناس فقد جعل الدّهر ينفك ويميل فهو بذلك يشبهه بشيء مادي أو بإنسان له القدرة، وذلك لأن الدّهر في الواقع لا يميل ولا ينفك، فقد ذكر الشاعر المشبه وهو الدهر وحذف المشبه به

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 138.

[2] المصدر نفسه : ص 140.

[3] المصدر نفسه : ص 281.

وهو الشيء المادي، وترك قرينـــة تدل عليـــه وهي (ينفك) وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

كما يقول ابن زيدون أيضا :[1]

ألمْ يأنِ أنْ يبكي الغمامُ على مثلي، ويطلبَ ثأرِي البرقُ منصلتَ النصلِ

يشبه الشاعر في هذا البيت الغمام بالإنسان ويعطيه صفة البكاء، كما يجعل البرق قادرا علـــى طلب الثأر لـــه، فقد وظـــف ابن زيدون في هـــذا البيت استعارتين وكلاهما مكنية، ففي الأولى ذكر المشـــبه وهو (الغمام) وحذف المشبه به وهو (الإنسان) وترك ما يدل عليه وهو (البكاء)، وفي الاستعارة الثانية ذكر المشبه وهو (البرق) وحذف المشبه به كذلك وهو (الإنسان)، وترك قرينة دالة عليه وهي (الثأر)، وقد نجح ابن زيدون بذلك في أن يعطي الصورة جمالا ورونقا.

ومن بديع الاستعارة قوله :[2]

وَهَلاّ أقَامَتْ أنْجُمُ اللّيلِ مَأتماً، لتندبَ في الآفاقِ ما ضاعَ من نثلي

نجد ابن زيدون في هذا البيت يلجأ إلى الصورة الاستعارية، وذلك لكي يبرز مكانته ومنزلته، حيث جعل النجوم تبكي وتقيم المآتم مثل الإنسان وذلك للدلالة على المنزلة والمنصب الذي كان يشغله ابن زيدون، حيث ذكر الشاعر المشبه وهو النجوم وحذف المشبه به وترك قرينه تدل عليه وهي (مأتما)، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

وقد عبر ابن زيدون عن الألم الذي يعانيه في سجنه وذلك بسبب تجاهل كل الناس له، بما فيهم ابن جهور فيقول :[3]

بَنى جَهْوَرٍ! أحْرَقْتُمُ بِجَفائِكُمْ جناني، ولكنّ المدائحَ تعبقُ

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 239.

[2] المصدر نفسه : ص 239.

[3] المصدر نفسه : ص 196.

لقد لجـــأ ابن زيدون في هذا البيت إلى الصـــورة الاستعارية، وذلك لكي يبين التجاهل الذي يلقاه وهو داخل السجن، حيث حول ما هو معنوي إلى ما هو محسوس، فقد جعل التجاهل بمثابة النار التي تحرق قلبه، فقام بذكر المشبه وهو (الجفاء) وحذف المشبه به وهو (النار)، وأبقى على ما يدل عليه بالقرينة وهو (الحرق).

ويمكننا أن نستنتج أن ابن زيدون وهو يوظف الصور الاستعارية، كان يختار من الصور ما يتلاءم مع حالته في السجن، حيث جاءت معظم الاستعارات كترجمة لحالته النفسية، كما أن ابن زيدون أكثـــر من استعمال الاستعـــارة المكنية على حساب الاستعارة التصريحية التي كانت قليلة، ومع ذلك فقد أحسن التمثيل والتشخيص، حتى أصبحت صوره واضحة المعالم يستقبلها المتلقي دون غموض.

ج. الكنايـــة :

الكناية هي فـــن من فنون التصـــوير البيانـــي وأساليب التعبير الفني عن المعاني وركن من أركان الفصاحة، شأنها شأن الاستعارة، وهي لا تقل أهمية عنها.

والكناية كذلك هي: "أن يريـــد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوميء به إليه ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك قولهم (هو طويل النجاد) يريدون طويل القامة"[1].

وتكمن بلاغة الكناية في أنها تأتـــي في المواقع التـــي لا يحـــسن التصريح فيها واعتمادها على الإيجاز في التعبير.

كما أن الكناية تتميز بالخفاء الذي يجعل المتلقي يعمل عقله وفكره حتى يصل إلى عمق الصورة، وبهذا فإن الكناية تختلط بالاستعارة نوعا ما " ففي الاستعارة يتقاطع الدال

[1] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص16.

مع المدلول في صفة مشتركة، أما الكناية فالتجاور هو أساسها، وبهذا فالكناية لا تمتد إلى نهاية المعاني، بينما تمتد الاستعارة إلى ما لا نهاية المعاني»[1].

وقد اهتم ابن زيدون بالكناية مثل اهتمامه بالتشبيه والاستعارة، فقد استخدمها في غير موقع من سجنياته حيث نجده يقول :[2]

وَرَأَوْنـــي سَامِـــرِيّاً يُتّقَـــى مِنْـــهُ المَسَاسُ

فقد وصـــف ابن زيدون نفسه بالسامري، وذلك كناية عن الهلع الذي سببه هذا الرجل في أنفـــس الناس، حيث كان السامري مـــن كبار بني إسرائيل، ولكنه عبد العجل فعوقب في الحياة بأن مُنع من مخالطة الناس، وكان من يراه يهرب ويفر خوفا منه وكذلك حـــال ابن زيدون الذي تركه جميع الناس ومن بينهم الأصدقاء والرفاق بمجرد دخوله السجن وأصبحوا يخشون زيارته أو الحديث إليه.

كما يقـــول :[3]

أما، وأرتْني النّجمَ موطئَ أخمَصي، لقد أوْطَأتْ خَدّي لأخمص من يخطو

يقول ابن زيدون، بعدما جعلتني أرى النجم تحت موطئ قدمي، جعلت خدّي تحت باطن قدم من يخطو، وذلك كناية عن تقلب الدنيا وعدم استمرارها على حال واحدة، فقد كان ابن زيدون وزيرا يخافه ويحترمه جميع الناس، ولكن كل ذلك زال بمجرد سجنه حيث أصبح يسخر منه جميع الناس.

ومن بديع الكناية قوله :[4]

وَبَقَاءُ الحُسَامِ في الجَفنِ يَثْني مِنْهُ بَعدَ المَضَاء، وَالتّصْمِيمِ

---

[1] فرانسوا مورو: البلاغة، المدخل لدراسة الصورة البيانية، (ط2)، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2003، ص70.

[2] ابن زيدون : الديوان، ص139.

[3] المصدر نفسه : ص 158.

[4] المصدر نفسه : ص 281.

لقد جعل ابن زيدون نفســـه مثل السيف في الغمد، وذلك كناية عن ذهاب القدرة والمكانة، حيث أن السيف تذهـــب قدرته على القطع وذلك لطول البقاء في الغمد، وكذلك ابن زيدون فقد ذهبت مكانته ومنزلته وقدرته لطول مكوثه في السجن.

وفي طلب الوساطة والشفاعة يقول :[1]

بأبي أنتَ، إنْ تشأ، تكُ برداً وسلاماً، كنارِ إبراهيمِ

يخاطب ابن زيدون صديقـــه ويطلب منه أن يقوم بالشفاعة والوساطة له، حيث جعله كنار إبراهيم التي كانت "بردا وسلاما" عليه وذلك كناية عن المغفرة والتسامح.

ومن بديع الكناية قول ابن زيدون : [2]

وَفي أُمّ مُوسى عِبْرَةٌ أنْ رَمَتْ بهِ إلى اليَمّ، في التّابوتِ، فاعتَبرِي وَاسلى

يخاطب ابن زيدون أمه ويدعوها أن تتخذ من قصة "أم موسى" عبرة، إذ رمت به إلى الماء، حيث جعل أمه مثل أم موســـى وذلك كناية عن الصبر، وذلك لأن أم موسى صبرت على فراقه، وكذلك أم ابن زيدون عليها أن تكون صابرة على فراقه.

كما يقول : [3]

هيَ النّعلُ زلّتْ بي، فهل أنتَ مكذبٌ لقيلِ الأعادي إنّها زَلّةُ الحِسْلِ؟

يقـــول ابن زيدون أن الخطأ الـــذي قام به صغير جدا فهو مثل زلة القدم ولكن الأعداء قاموا بتضخيم الأمر وجعلـــوه معقدا، فقول ابن زيدون (هي النعل زلت بي) كناية عن الذنب الصغير والخطأ اليسير.

لقد حفلت سجنيات ابن زيدون بالكناية وذلك محاولة منه لتحريك أحاسيس الناس من حوله، لعلهم ينتبهون إليه ويرجعون إليه حريته المفقودة، ومكانته المسلوبة، وكرامته

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 282.

[2] المصدر نفسه : ص 240.

[3] المصدر نفسه : ص 243.

التي أهينت، وقد استطاع من خلال الكناية أن يوصل رسالته إلى المتلقي دون غموض أو التباس.

2. الصور البديعية :

تعتبر الصور البديعية "وسيلة من وسائل التصوير الشعري لا تقف عند تجانس لفظتين أو تقارب عبارتين أو ترديد كلمتين، بل تتعدى ذلك إلى إثارة مخيلة المتلقي، ومخاطبة سمعه، وبث الاندهاش في نفسه، وحمل ذهنه على التحليل والتركيب لكي يظفر بالمتعة الفنية"[1].

ويعتبر الجاحظ أول من اعتنى بالبديع وصوره وأطلقه على فنون البلاغة المختلفة، وقد اتفق البلاغيون على تقسيم المحسنات البديعية إلى قسمين : محسنات معنوية ومحسنات لفظية، " فالمحسنات المعنوية تزيد المعنى حسنا إما بزيادة تنبيه الشيء أو بزيادة التناسب بين أجزاء الكلام "[2] وأنواعها كثيرة منها الطباق والمقابلة، وأما المحسنات اللفظية فهي " تزيد الألفاظ حسنا وإن كانت لا تخلو من تحسين المعنى "[3] وأنواعها قليلة ومنها : الجناس والسجع.

وقد شغف ابن زيدون بالبديع كما شغف به غيره من شعراء عصره، وهذا ما دفعه إلى الأخذ به في تشكيل صوره الفنية، فأختار من الألفاظ أحسنها وأوقعها جرسا في الأذن ناظما منها عقودا من الكلمات والألفاظ ذات الوقع الموسيقي الأخاذ، ومما ساعده على ذلك مهارته الشعرية وقدرته اللغوية الفذة، وحياة الترف التي كان يعيشها في الأندلس، وهذا ما دفعه إلى مواكبة هذه الحياة المترفة بالتفنن في إنتاجه الشعري وذلك بتزينه بالمحسنات البديعية المختلفة.

---

(1) عبد الحفيظ بوالخراص : الغربة والحنين في شعر ابن حمديس الصقلي، رسالة ماجستير، مخطوط، جامعة فرحات عباس، سطيف، 2005م، ص 154.

(2) محمود أحمد المصري : رؤى في البلاغة العربية، دراسة تطبيقية لمباحث علم البديع، (ط 1)، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، 2008م، ص 15.

(3) المرجع نفسه : ص 15.

أ. الطبـــــاق :

الطباق "هو الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى وقد يكونان اسمين أو فعلين أو حرفين"[1] فالطباق هو تقابل كلمة بكلمة أو لفظ بلفظ آخـــر، وقد استعمل ابن زيدون هذه الأداة بكثرة في شعره ومن ذلك قوله :[2]

فَفي يَومِنا خَمرٌ وَفي غَدِهِ أَمرُ

بين كلمتي (يومنا، غده) دهر مليئ بالمتناقضات والأضداد، وقد بين ابن زيدون من خلال هذا الطباق، أن الدهر لا يبقـــى على حال واحدة فإذا كان اليوم لهو ولعب، فإن الغد مختلف تماما لأنه سيكون كله جد ومشاغل.

وبما أن قرطبة قد شغلت مكانة مميزة عند ابن زيدون، فإننا نجده يقارن بين ليلها ونهارها فيقول :[3]

نَهارُكِ وَضّاحٌ وَلَيلُكِ ضَحيانُ

فقد استعمل الطباق في كلمتي (نهارك، ليلك)، حيث أن نهار قرطبة مشرق وليلها منير.

كما يقول :[4]

وأنّ الحسامَ العضْبَ ثاوٍ بجفْنِهِ، ومَا ذمّ منْ غربَيْهِ قدٌّ ولا قطّ

يشبه ابن زيدون في هذا البيت نفـــسه بالسيف القاطع المقيم في غمده، ووظف الطباق في كلمتي (قدٌّ ، قط)، حيث أن السيف لم يذم من حديه لا القطع طولا ولا القطع عرضا.

---

[1] السيد أحمد هاشمي : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديـــع، (ط 1)، المكتبـــة العصرية، بيـــروت، 1999، ص 291.

[2] ابن زيدون : الديوان، ص 197.

[3] المصدر نفسه : ص 199.

[4] المصدر نفسه : ص 156.

وبما أن ابـــن زيدون قد سجن بسبب الحساد والوشاة فإننا نجده يلوم ابن جهور وذلك بسبب استماع هذا الأخير لأقوالهم، فيقول :[1]

عدا سمعَه عني، وأصغى إلى عدىً لهم في أديمي كُلّما استَمكنوا عَطّ

بَلَغتُ المَدى ، إذ قَصّروا، فقلوبهـــمْ مكامـــِنُ أضغانٍ أساوِدُهَـــا رُقط

حيث استعمل الشاعـــر الطباق في البيـــت الأول في قولـــه (عدا سمعه، أصغى) وكذلك في البيت الثاني (بلغت، قصروا) حيث يلوم ابن زيدون ابن جهور ويعاتبه على عدم الإصغاء إليه، بينما يصغي لحساده، كما يخبره أنه قد بلغ أهدافا بعيدة، بينما قصروا هم عن تحقيقها، وقد ساهم الطباق الموجود في البيتين في توضيح المعنى وتقريبه إلى ذهن المتلقي، إذ بالأضداد تتضح المعاني.

ومن بديع الطباق قوله : [2]

ولله فينا علمُ غيبٍ، وحسبُنا به، عند جوْرِ الدّهرِ، من حَكَمٍ عَدْلِ

إن الله يعلم الغيب وما يخفى، وإذا كـــان الدّهر قاسيا مع الإنسان فإن الله لابد أن ينصفه، ومن خلال مفارقـــة (جور، عدل) يؤكـــد ابن زيدون هذا المعنى فإذا كان الدّهر يجور ويظلم ولا يستطيع الإنسان الوقوف في وجهه، فإن الله عادل لا يترك عباده يعانون بل ينصفهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

ويمدح ابن زيدون أبا الحزم بن جهور، فيقول :[3]

هُمَامٌ عَريقٌ في الكِرَامِ، وقَلّما ترَى الفرعَ إلاّ مستمدّاً من الأصلِ

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 158.

[2] المصدر نفسه : ص 240.

[3] المصدر نفسه : ص 240.

يرى الشاعر أن ابن جهور شجاع وكريم، ويؤكد هذا المعنى من خلال توظيف الطباق (الفرع، الأصل)، حيث أن ابن جهور مجرد فرع، وأن الشجاعة والكرم الذي يتميز بهما قد أخذهما من أبيه وأجداده.

كما يقول :[1]

أأنْ زعمَ الواشونَ ما ليسَ مزعماً تعذِّرُ في نصرِي وتعذرُ في خذلي؟

استعمل ابن زيدون الطبـــاق (نصري، خذلي) في مخاطبة ابن جهور، وذلك في سياق عتابه له على عدم نصره ومساعدته وإصراره على خذله وتركه وحيدا في سجنه يعاني من القهر والوحدة والشوق والحنين.

ويستمر ابن زيدون في مخاطبة أبي الحزم فيقول :[2]

ألا إنّ ظَني، بَينَ فِعلَيكَ، وَاقِفٌ وُقوفَ الهوَى بينَ القَطيعةِ وَالوَصْلِ

يقول ابن زيدون إن كل أمالي متعلقة بك فإما أن تعفوا عني وإما أن تتركني في السجن، واستعمل الطباق (القطيعة، الوصـــل)، حيث شبه نفسه بالعاشق الذي ينتظر من حبيبته إما القطيعة أو الوصال وذلك في صورة فنية جميلة ورائعة.

ومن بديع الطباق قوله :[3]

واحدٌ، سلّمَ الجميعُ لهُ الأمرَ، فكانَ الخصوصُ وفقَ العمومِ

يمدح ابن زيدون ابن جهور بأنه شخص واحد سلم جميع الناس أمورهم إليه، فهو شخـــص واحد ولكنـــه يمـــثل جميـــع الناس، وقـــد استعـــمل الطبـــاق (واحد، الجميع) و(الخصوص، العموم) في صورة فنية جميلة تؤكد مقدرة ابن زيدون الشعرية وتفوقه في الصور والأساليب.

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 242.

[2] المصدر نفسه : ص 243.

[3] المصدر نفسه : ص 281.

وفي نفس السياق يقول :[1]

قلّدَ الغمرُ ذا التّجاربِ فيهِ؛ وَاكْتَفَى جاهِلٌ بِعِلْمِ العَلِيمِ

استعمل الطباق (ذو التجارب ≠ جاهل) وهو طباق إيجاب، وغرضه توضيح المعنى.

وبما أن السجن يصيب الإنسان بالمرض والسقم، فإن ابن زيدون قد شغله مرضه عن باقي الأمور فيقول :[2]

سَقَمٌ لا أُعَادِ فيهِ وَفي العَائِدِ أنسٌ يفي ببرء السّقيمِ

يقول الشاعر مرض لا أزار فيه، وفي الزائر مؤانسة تساعد على شفاء المريض وقد استخدم الطباق في كلمتي(سقم، برء) في صورة فنية جميلة تمثلت في ذكر الضدّين ليتضح المعنى، وفي حديثه عن الدّهْر يقول :[3]

مَا عَلَى ظَنّيَ بَاسُ، يَجْرَحُ الدّهْرُ وَيَاسُو

بين كلمتي (يجرح، ياسو) دّهْر مليء بالمتناقضات والأضداد، وقد غلف هذا الطباق بظلال من الأمل، حيث أن الدّهْر مثلما يجرح، فإنه أيضا يداوي وهو عبارة عن طباق إيجاب.

وبسبب محنة السجن التي يعاني منها، فإن ابن زيدون قد أصابته الحيرة فيقول:[4]

أُنَا حَيْرَانُ، وَلِلأمْرِ وُضُوحٌ وَالتِبَاسُ

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 281.

[2] المصدر نفسه : ص 282.

[3] المصدر نفسه : ص 138.

[4] المصدر نفسه : ص 139.

لقد وظف الشاعر الطباق في كلمتي (وضوح، التباس)، حيث أن الأمور التي تبدو واضحة هي في الواقع معقدة وفيها التباس وهذا ما يؤدي إلى الحيرة والدهشة.

لقد أدى الطـــباق عند ابن زيدون دور مهـــم في تشكيل صورته الفنية وأكسب أسلوبه جمالا ورونـــقا منقطع النظير، ولذلك نجـــده قد طرق هذا اللون البديعي بكثرة في سجنياته، وكأنه أراد من خـــلال توظيفه لطـــباق أن يعبر عن التناقض الموجود في حياته فمن التمتع بالحرية إلى السجـــن، ومن المنصب العالي الذي كان يشغله إلى الاستعطاف ومن وصال الحبيبة إلى هجرها.

ب. الجنـــاس :

الجناس هو " أن يتـــفق اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى "[1] ويعتبر الجناس من أهم مباحث علم البديع، ولذلك فقد اهتم به الشعـــراء كثيرا، وذلك بسبب الدور الكبير الذي يلعبه في تشكيل الصورة الفنية.

وقـــد وظف ابن زيدون الجناس فـــي سجنياته وجعلـــه الأساس الـــذي تقوم عليه الصورة الفنية لديه.

حيث يقول ابن زيدون :[2]

ومُسْتَبطَإِ العُتْبَى، إذا قلتُ قد أتَى رضاه، تمادى العتبُ واتّصلَ السّخط

فقد جانس الشاعر بين كلمتي (العُتْبَى، العَتَبُ)، حيث أن العُتْبَى تعني الرضى، بينما كلمة العَتَبُ فإنها تعني اللوم، وقد زاد هذا الجناس الصورة جمالا وبهاء.

ومن بديع الجناس قوله :[3]

لعمرُ اللّيالي! إنْ يكنْ طال نزْعُها لقد قرطَستْ بالنَّبلِ في موضعِ النُّبلِ

---

[1] السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص 325.

[2] ابن زيدون : الديوان، ص 158.

[3] المصدر نفسه : ص 239.

استعمل ابن زيدون الجناس في كلمتي (النَبْلِ، النُبْلِ)، وذلك لكي يبين أن الليالي التي طال رميها إياه بالمصائب، قد أصابت نبالها موضع النُبْلِ منه.

وفي الاستعطاف يقول :[1]

وأصدى إلى إسعافكَ السّائغِ الجَنى وأضحى إلى إنصافِكَ السّابغِ الظلّ

يستعطف ابن زيدون ابن جهور، ويخبره بأنه يظمأ إلى عونه ويشتاق إلى عدله وقد جانس في هذا البيت بين كلمتي (السائغ، السابغ)، حيث أن كلمة السائغ تعني السهل بينما كلمة السابغ فإنها تعني الوارف الظل.

كما يقــول :[2]

واهاً لثغرِكِ ثغراً باتَ يكلؤهُ غيرانُ، تسرِي عوالِيهِ إلى الثُّغَرِ

حيث نجد الجناس في كلمتي (ثَغْرِكَ، الثُّغَرِ)، فكلمة ثَغْرِكَ تعني الفم، بينما الثُّغَرِ فإنه يعني المنافد والطرق.

ومن روائع الجناس قوله :[3]

من فيه للمجتَلي والمبتَلي، نسقاً، جَمالُ مَرأى ً عَلَيْه سَرْوُ مُخْتَبَرِ

استعمل ابن زيدون في هذا البيت الجناس الناقص في قوله (المجتلي، المبتلي) حيث أن المجتلي يعني الناظر، بينما المبتلي يعني المختبر، وقد أعطى هذا الجناس البيت تناسقا وجمالا.

ويقول ابن زيدون كذلك :[4]

خطرٌ يقتضي الكمالَ بنوعَيْ خُلُقٍ بَارِعٍ، وَخَلْقٍ وَسِيمِ

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 242.

[2] المصدر نفسه : ص 107.

[3] المصدر نفسه : ص 108.

[4] المصدر نفسه : ص 281.

إن الشرف الرفيع حسب ابن زيدون يستلزم الشكل الجميل والأخلاق البارعة حيث نجد الجناس في كلمتي (خُلُقٍ، خَلْقٍ)، فكلمة الخُلُقِ تعني الأخلاق، بينما كلمة خَلْقٍ فإنها تعني الشكل.

إن الجناس عند ابن زيدون، قد لعب دورا كبيرا في تركيب الصورة كما أنه حسن من مظهرها الخارجي، مما حقق جرسا موسيقيا للألفاظ في سياق الإيقاع الموسيقي، فضلا عما أحدثه من لفت انتباه المتلقي نحو المعاني وذلك بتأمل الألفاظ وإدراك المقصود منها.

ج. رد العجــز على الصــدر :

هو في النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين، أو المتجانسين، أو الملحق بهما في أول الفقرة والآخر في آخرها، وهو في الشعر " أن يكون أحدهما في آخر البيت، والآخر إما في صدر المصراع الأول، أو في حشوه – أو في آخره»[1].

وقد استخدم ابن زيدون رد العجز على الصدر في أكثر من موضع في سجنياته وذلك بهدف التأكيد وبيان الأهمية وتقوية الأنغام.

ومثال ذلك تأكيد ابن زيدون أن الحياة الدنيا ما هي إلا متاع زائل، وقد بدا ذلك في تكرار كلمة اللباس، في قوله :[2]

نَلْبَسُ الدّنْيــَا، ولَكِــنْ متعــةٌ ذاكَ اللّبــاسُ

ويشير ابن زيدون إلى صديقه بضرورة تذكره وعدم نسيانه، وذلك من خلال تكرار كلمة الكأس، فيقول :[3]

وأدرْ ذكــرِيَ كأســاً، ما امتطَتْ كفَّك كاسُ

---

[1] السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص 333.

[2] ابن زيدون : الديوان، ص 138.

[3] المصدر نفسه : ص 140.

ويوظف ابن زيدون رد العجــز على الصدر في حديثــه عن الشيب وانتشاره في شعره وهو لا يزال شابا، حيث كرر كلمة وخط، فيقول :[1]

هرمْتُ، وما للشّيبِ وخطٌ بمفرَقي، وكائنْ لشيبِ الهمّ في كبدي وخطُ

كما يقول ابن زيدون في تغزله :[2]

والصّدرُ، مذْ وردَتْ رفْهاً نواحيَهُ، تُومُ القَلائِدِ لَمْ تَجْنَحْ إِلَى صَدَرِ

حيث يؤكد الشاعر أن القلائد إذا وضعت على صدر الحبيبة فإنها ترفض الرجوع والعودة وتفضل البقاء على صدرها.

ويتحدث ابن زيدون عن تجاهل أبي الحزم بن جهور له، فيؤكد أن هذا التجاهل لا يلام عليه القدر، وذلك من خلال تكرار كلمة قدر في صدر البيت وعجزه، فيقول :[3]

وَإِن يُثَبِّط أَبا الحَزمِ الرِضى قَدَرٌ عَن كَشفِ ضُرّي فَلا عَتَبٌ عَلى القَدَرِ

ويوظف الشاعر رد العجز على الصدر في مدحه لأبي الحزم، وذلك من خلال تكرار كلمة السهر، حيث أن أبا الحزم يترك النوم وذلك من أجل أن يسهر على راحة الناس وسلامتهم، فيقول :[4]

كمِ اشترَى، بكرَى عينيهِ، من سهرٍ؛ هُدوءُ عَيْنِ الْهُدَى في ذَلكَ السَّهَرِ

وفي نفس السياق يقول :[5]

وزعيمٌ، بأنْ يذلِّلَ لي الصّعــبَ، مثابي إلـــى الهمـــامِ الزّعيمِ

---

[1] ابن زيدون : الديوان، ص 157.

[2] المصدر نفسه : ص 106.

[3] المصدر نفسه : ص 108.

[4] المصدر نفسه : ص 109.

[5] المصدر نفسه : ص 282.

حيث يمدحه ابن زيدون بأنه الوحيد القادر على أن يذلل أمامه الصعاب، وأنه ملك عظيم، ويتجلى ذلك من خلال تكرار كلمة زعيم.

والملاحظ أن رد العجزعلى الصدر قد جاء في مواضع مختلفة في الأبيات السابقة، وقد كان ترديد ابن زيدون لكلمة ما نابعا من الجو العام الذي يعيشه في قصيدته، والحالة النفسية التي كانت تعتريه في ذلك الوقت.

خاتمـــــــة

خاتمـــــة :

شكل شعـــر السجون في أدبنا العربي القديم ظاهـــرة تستدعي الوقوف عندها ودراستها، وذلك بسبب ما يتميز به هذا النوع من الشعر من عاطفة صادقة وأحاسيس مرهفة وتصوير للآلام والمعاناة التي تصيب الإنسان في السجن، وهذا ما نراه واضحا في سجنيات ابن زيدون.

وقد توصلنا في بحثنا هذا إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي :

-رغم أن الحياة السياسية كانت متردية في عصر ملوك الطوائف، إلا أن الحياة الأدبية كانت على النقيض من ذلك، حيث شهد هذا العصر رقيا فنيا وأدبيا لم يشهد له مثيل في العصور السابقة.

-أصبح الشاعر في عصر ملوك الطوائف يحتل مكانة بارزة وهذا ما جعله يتعرض للكثير من المحن والنكبات ومن بينها السجن.

-تعرض الكثير من الشعراء عبر مختلف العصور لتجربة السجن، حيث تنوعت أسباب سجنهم والمدة التي قضوها في السجن، فقد كانت مدة العقوبة غير محددة في أغلب الأوقات، إذ أن الشاعر قد يغادر السجن بعد فترة قصيرة أو قد يبقى فيه طول حياته ولا يغادره إلا إلى القبر.

-يقدم لنا شعر السجون صورة متكاملة عن حياة أصحابه، حيث يركز على المعاناة والعذاب وظروف المعيشة القاسية، كما أنه يجسد الشعور بالغربة وتأجج لواعج الشوق والحنين.

-لم تكن عقوبة السجن في أغلب الأوقات تطبيقا لأحكام الشريعة الإسلامية وإنما كانت انتقاما ولأسباب سياسية غالبا.

-عبر شعراء السجــون عن حنينهم وشوقهم إلى أهلهم وأحبائهم، كما قاموا بعتابهم لتخليهم عنهم في محنتهم.

-تنوعت مواقف الشعراء من السلطان الذي قام بسجنهم، فمنهم من ظل موقفه صلبا وثابتا ومنهم من انهار وأخذ يستعطف ويتوسل.

-استطاع السجن أن يقيد الأجســاد ولكنه عجز عن تقييد النفوس والأفكار التي ظلت حرة طليقة تتحدى القضبان والسلاسل.

-تعددت الأسباب التي سجن من أجلها ابن زيدون، حيث تعتبر السياسة هي السبب الرئيس لسجنه ومعاناته.

-تميزت قصائد ابن زيدون عن غيرها من قصائد السجن بأنها كانت طويلة وليست عبارة عن مقطوعات شعرية كما جرت عليه العادة في شعر السجون.

-يعود سبب فشل ابن زيدون في استعطاف ابن جهور إلى أنه كان يخاطبه مخاطبة الند للند، ويعتبر نفسه صاحب فضل عليه وعلى دولته.

-تنوعت مضامين سجنيات ابن زيدون بين الاستعطاف والمدح والشوق والحنين وغيرها من المضامين التي عكست لنا بصدق الحالة النفسية التي كان يعيشها ابن زيدون في سجنه.

-جعل ابن زيدون من الطبيعة والزمان والمكان، مصادر يأخذ منها صــوره الفنية، وهذا ما جعل صوره تتميز بالجمال والإبداع والتنوع.

-تعددت أنماط الصورة عند ابن زيدون ما بين صــور : لونية وبصرية وسمعية وذوقية وشمية وخطية، حيث تحلت صوره بالجدة والطرافة من ناحية، وبالوضوح من ناحية أخرى، لذلك فقد ظل شعره محتفظا بنضارته بالرغم من مرور العصور.

-استخدم ابن زيدون العديد من الأدوات الفنية لتشكيل صورته، ومن ذلك الصور البيانية والبديعية، حيث شكلت الصورة التشبيهية حضورا لافتا، ثم الصور الاستعاري ة وتلتها الصور الكنائية بالإضافة إلى الجناس والطباق ورد العجز على الصدر.

-يعتبر ابن زيدون واحدًا من أبرز الشعراء في الأدب على امتداد تاريخه الطويل، وذلك لأنه كان شاعرا متفردا، ويرجع تفرده إلى سببين، أولهما : تميز شعره بالعاطفة الصادقة التي تنتقل إلى مشاعر المتلقي في يسر وهوادة، وثانيها : ما امتاز به شعره من تماسك في بناء القصيدة، وما اتكأ عليه من تصوير فني غير مسبوق، ولهذا فقد ظل شعر ابن زيدون طازجا ومرغوبا ومحببا لدى المتلقي رغم مرور الزمن.

وفي الأخير نقول إن هذه النتائج التي أفرزتها الدراسة، قد تتفق أو تختلف مع قراءات الغير، مع العلم أن البحث في تجربة السجن لا يزال واسعا يحتاج إلى المزيد من البحوث والدراسات من قبـــل المتخصصين، وخاصة في عصر ملوك الطوائف بالأندلس الذي شهد انتشار هذه الظاهرة بشكل واسع جدا.

والله ولي التوفيق

ملخـــــص

ملخص :

يعتبر ابن زيدون من أشهر شعراء الأندلس، وقد اشتهر بشعره الغزلي الذي قاله في ولادة بنت المستكفي، حيث اقترن اسمهما معا كاقتران قيس بليلى وجميل ببثينة، ولذلك فقد تناولت جل الدراسات شعره الغزلي وأهملت بقية الأغراض الأخرى، أما هذا العمل فقد تطرق إلى موضوع السجن في شعره، حيث يطرح البحث سؤالا محوريا وهو: كيف تجلت صورة السجن في شعر ابن زيدون؟

ومن أجل الإجابة على هذا السؤال، فقد تكون البحث من مقدمة ومدخل وثلاثة فصول وخاتمة، حيث تم التطرق في المدخل إلى الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في عصر ملوك الطوائف، وأما الفصل الأول فقد تناولت فيه مفهوم السجن ومفهوم شعر السجون والعلاقة الموجودة بينهما، وتطور شعر السجون عند العرب، ثم موقف الشاعر السجين من السلطان، في حين تم التطرق في الفصل الثاني إلى أهم مضامين سجنيات ابن زيدون، بينما خصص الفصل الثالث لدراسة الصورة في سجنيات ابن زيدون من حيث مصادرها وأنماطها وأدواتها.

وتنتهي رحلتي مع هذا البحث بخاتمة رصدت فيها أهم النتائج.

Résumé :

Ibn Zaydoun est considéré comme l'un des plus célèbres poètes andalous. il est connu par ses poésies érotiques (ghazal) dédiées à wallada bint al-mostakfi .son nom est désormais lié a celle-ci comme pour kais et layla, Djamil et bouthaina… Les études précédentes se focalisaient presque exclusivement sur ces productions amoureuses D'ibn Zaydoun et négligeaient les outres genres, dans ce travail,nous avons décidé d aborder le théme de la prison dans la poésie D'ibn Zaydoun en répondant à la problématique suivante : comment est apparue limage de la prison dans les poésies d'ibn Zaydoun ?

Dans l'objectif de pouvoir apporter une réponse satisfaisante à cette question, nous avons organisé notre travail comme suit :

- Avant- propos.
- Introduction.
- Trois chapitres.
- Conclusion.

Dans l'avant propos nous parlerons de la vie politique, sociale et littéraire pendant l'époque dite «les royaumes des faction(muluk at-tawa'if)». Dans, le premier chapitre nous aborderons la notion de la prison et celle de la poésie de la prison, et le rapport entre elles, Nous nous y intéresserons aussi à l'évolution de ce type de poésie chez les arabes et la position du poète prisonnier envers les autorités. Dans le deuxième chapitre, nous présenterons les principaux contenus des écrits de prison d'ibn Zaydoun. Le troisième chapitre sera consacré à l'analyse de l'image dans ces écrits : sa source, ses types ainsi que ses outils.

Nous terminerons notre travail par une conclusion que fera le point sur les principaux résultats et perspectives.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم، برواية ورش

المصـــادر :

1. ابـــن الآبار، إعتاب الكتـــاب، تح: صالح الأشـــتر، (ط1)، مجمـــع اللغة العربية بدمشق، سوريا، 1961.
2. ابن الأثـــير، المثل السائـــر، تح: أحمد الحوفي وبد وي طبانة، ج2، (ط1)، مكتبة النهضة، مصر، 1960.
3. ابن شهـــيد الأندلسي، الديوان، تـــح: يعقوب زكـــي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 2013.
4. ابن بســـام ، الذخيرة في محاســـن أهل الجزيرة، تـــح: إحسان عباس، (ط 1)، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1979.
5. ابن رشيق القيروانـــي، العمدة في محاسن الشعـــر وآدابه ونقده، تح : محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، (ط5)، دار الجيل، سوريا، 1981.
6. ابن زيدون، الديوان، شـــرح: يوسف فرحات، (ط2)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994.
7. ابن طباطبا العلـــوي، عيار الشعر، تح : عباس عبد الستـــار، (ط 1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1982.
8. أبو الطيب المتنبي ، الديوان، (دط)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1983.
9. أبو العباس محمـــد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أحمد الدالي، ج2، (ط3)، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1997.

10. أبو العتاهية ، الديوان، (دط)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986.

11. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، تح : عبد الله علي الكبير، (دط)، دار المعارف، القاهرة، مصر، (دت).

12. أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي ،الموازنة، تح: محمد محي الدين عبدالحميد،(دط)، مطبعة السعادة، القاهرة، 1959.

13. أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ج 1، (دط)، مكتبة الخانجي، 1985.

14. أبو منصور عبد المالك الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق: محمد مفيد قميحة، ج2، (ط1)، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983.

15. أبو نواس ، الديوان، (دط)، دار صادر، بيروت، لبنان، (دت).

16. أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطماش، (دط)، دار الجيل، 1988.

17. أحمد محمد المقري ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، مجلد4، (دط)، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968.

18. الأحوص الأنصار ي ، الديوان، تح: عادل سليمان جمال، (ط 2)، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1990.

19. بشر بن أبي خازم ، الديوان، شرح : مجيد طراد، (ط 1)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994.

20. الحطيئة، الديوان، شرح: حمد وطماس، (ط2)، دار المعرفـــة، بيروت، لبنان، 2005.

21. طرفة بن العبد ، الديوان، تح : عبد الرحمان المصطاوي، (ط 1)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2003.

22. عبد الرحمان بن خلدون ، المقدمة، ضبط وشرح : خليل شحادة، ج 1، (دط)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2001.

23. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمد رشيد رضا، (دط)، دار المعرفة، بيروت، 1998.

24. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجا ز، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر، (ط5)، مكتبة الخانجي،2004.

25. عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس، كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، حرره : علي عمر، (دط)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006.

26. عدي بن زيد العبادي، الديوان، تح: محمد جبار المعيبد، (دط)، دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، 1965.

27. العرجي، الديوان، تح: سجيع جميل الجبيلي، (ط 1)، دار صادر، بيروت، لبنان، 1998 .

28. علـــي بن الجهم، الديـــوان، تح: خليـــل مروم بك، (ط 2)، دار الأفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1980.

29. علي بن عبد العزيز الجرجانـــي، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط2)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1951.

30. الفتح بن خاقان ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تح: محمد علي شوابكة، (ط1)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983.

31. الفرزدق، الديوان، شرح: علي فاعور، (ط 1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987.

32. القتال الكلابي، الديوان، تح: إحسان عباس، (دط)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1989.

33. قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح : محمد عبد المنعم خفاجي، (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (دت).

34. الكميت بن زيد الأسدي، الديوان، تح: محمد نبيل طريفي، (ط 1)، دار صادر، بيروت، لبنان، 2000.

35. محمد بن عبـــد الملك الزيات، الديـــوان، تح: يحي الجبـــوري، (ط 1)، دار البشير، عمان، 2002.

36. مهلهل بن ربيعة ، الديوان، شرح : طلال حرب، (دط)، الدار العالمية، (دت).

37. هذبة بن الخشـــرم، الديـــوان، تح : يحي الجبـــوري، (ط 2)، دار القلم للنـــشر والتوزيع، 1986.

المـــراجع :

1. إحسان عبـــاس، تاريخ الأدب الأندلسي عصـــر الطوائف والمرابطين، (دط)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1997.

2. أحمد جمال المرازيق، جماليات النقد الثقافي، نحو رؤية للأنساق الثقافية في الشعر الأندلسي، (دط)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، 2009.

3. أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي، (ط4)، القاهرة، 1975.

4. أحمد مختار البرزة، الأسر والسجن في شعر العرب، (دط)، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، سوريا، 1985.

5. أحمـــد هيكـــل، الأدب الأندلســـي من الفتـــح إلى سقـــوط الخلافـــة، (دط)، دار المعارف، القاهرة، 1985.

6. أشرف محمود نجا، قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية، عصر الطوائف، (ط1)، دار الوفاء، 2003.

7. حسن نعيسة، شعراء وراء القضبـــان، من الأدب السياسي، (ط 1)، دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1986.

8. حنا الفاخوري، الجامـــع في تاريخ الأدب العربـــي، الأدب القديم، (ط 1)، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1986.

9. خالـــد النجار، سراج الرعاة، حوارات مع كـــتاب عالميين، (ط 1)، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، 2014.

10. خليل بن أيبك الصفدي ،تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (دط)، المكتبة العصرية، بيروت، 1969.

11. راغب السرجاني، قصـــة الأندلس مع الفتـــح إلى السقوط، (ط 1)، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2011.

12. سكينة قدور، قراءات في الشعر العربـــي الحديث والمعاصر، (ط 1)، منشورات مكتبة اقرأ، قسنطينة، الجزائر، 2012.

13. سليمان بن صالـــح الخراشي، المشاهـــير والسجون، (ط 1)، دار ابن الأثـــير، المملكة العربية السعودية، 2003.

14. سمر الديوب، الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم، (دط)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2009.

15. السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، (ط 1)، المكتبة العصرية، بيروت، 1999.

16. شوقي ضيف، في النقد الأدبي،(ط 8)، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، 1993.

17. صلاح جـــرار، قراءات في الشـــعر الأندلســـي، (ط 2)، دار المســـيرة للنشر والتوزيع، عمان، 2009.

18. الطاهر أحمد مكي ، مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن، (ط 1)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1994.

19. عباس إبراهيـــم، شرح ديـــوان أبي فراس الحمداني، (ط 1)، دار الفكر العربي، بيروت، 1994.

20. عبد الحميد المعيني، شعر بني تميم في العصر الجاهلي، (دط)، منشورات نادي القصيم الأدبي، بريدة، السعودية، 1982.

21. عبد الرحمـــان علي حجـــي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، (ط2)، دار القلم، دمشق، 1981.

22. عبد القادر القط، الاتجـــاه الوجداني في الشـــعر العربـــي المعاصـــر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1986.

23. عبد اللطيف محمد السيد الحديدي ، الصورة الفنية في شوقيات حافظ، دراسة تنظيرية تطبيقية، (ط1)، دار المعرفة للطباعة والتجليد، المنصورة، مصر، 1997.

24. عبد الله التطاوي ، الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد، (دط)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002.

25. عدنان محمـــد غزال ، مصادر دراسة ابـــن زيدون، (دط)، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2004.

26. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية، (ط 3)، دار العودة، بيروت، 1981.

27. علي البطل، الصورة في الشعـــر العربي حتى أواخـــر القرن الثانـــي الهجري، (ط3)، دار الأندلس، لبنان، 1983.

28. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربـــي، ج 4، ('ط2)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1984.

29. فرانسوا مورو ، البلاغة، المدخل لدراسة الصورة البيانية، (ط 2)، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2003.

30. فوزي خضر، عناصـــر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، (دط)، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين لإبداع الشعري، الكويت، 2004.

31. محمد المنوني وآخرون، التاريخ الأندلســـي من خلال النصوص، (ط 1)، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، 1991.

32. محـــمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، (ط 1)، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2000.

33. محمد زغينة، الأبعاد الموضوعية والخصائص الفنية في سجنيات شعراء جمعية العلماء المسلمـــين الجزائريين 1954–1962، نوميديا للطباعـــة والنشر والتوزيع، 2009.

34. محمد ناصـــر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، 1925 – 1975، (ط2)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006.

35. محمد نبـــيل طريفي، ديوان اللصوص في العصـــر الجاهلي والإسلامي، ج 1، (ط1)، دار الكتب العلية، بيروت، لبنان، 2004.

36. محمود أحمد المصري ، رؤى في البلاغة العربية، دراسة تطبيقية لمباحث علم البديع، (ط1)، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، 2008.

37. مريم قاسم الطويل، مملكة ألمريـــة في عهد المعتصم بن صـــمادح، (ط 1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1994.

38. مصطـــفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العـــرب، ج 2 ،(ط1)، مكتبة الإيمـــان، المنصورة، مصر، 1997.

39. مقران فصيح ، البناء اللغوي لشعر السجون عند مفدي زكريا وأحمد الصافي النجفي، (ط1)، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 2008.

40. منصور جريدي الثبيتي ، شاعرية المكان، (ط 1)، شركة دار العلم للطباعة والنشر، السعودية، 1992.

41. واضح الصمد، السجـــون وأثرها في الآداب العربية مـــن العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، (ط1)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1995.

42. وهب رومية، شعر ابن زيدون، قراءة جديـــدة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2014.

43. يوسف شحدة الكحلوت، الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي، عصر ملوك الطوائف، (دط)، 2010.

الرسائـــل الجامعيـــة :

1. أمـــل بنت محسن سالم رشيد العميري، المكان في الشـــعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، السعودية، 2006.

2. ساهرة عليوي حسين العامـــري، المكان في شعر ابن زيدون، رسالة ماجستير في آداب اللغة العربية، جامعة بابل، 2008.

3. سعيد عبد الله البشرى، الحياة العلميـــة في عصـــر ملوك الطوائف، أطروحـــة دكتوراه، جامعة أم القرى، السعودية، 1986.

4. سكينة قدور، الحبسيات في الشـــعر العربي، أطروحـــة دكتوراه دولة في الأدب العربي الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006-2007.

5. عبد الحفيظ بوالخراص ، الغربة والحنين في شعر ابن حمديس الصقلي، رسالة ماجستير، جامعة فرحات عباس، سطيف، 2005.

6. علي منصـــوري، البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، أطروحة دكتوراه في الأدب الحديث، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008.

7. فضيلة خلفاوي، الزهـــر والزهريات في الشعـــر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، مصر، 1983.

المجلات والدوريات :

1. حسناء أقدح، النرجسية وتجلياتها في غزل ابن زيدون، مجلة جامعة دمشق، عدد 2، مجلد29، 2013.

2. عباس علي المصـــيري، الصورة البيانية عند شعـــراء السجـــون في العـــصر العباسي، مجلة جامعة الخليل للبحوث، عدد1، مجلد4، 2009.

3. عبد القــادر الرباعي، الصـــورة في النقد الأوروبي، مجلـــة المعرفة، عدد 464، 1979.

4. محمد صالح شـــريف عسكري ومرتضى زارع برمـــي، شعر السجون في الأدب العراقي المعاصر (الأعمال الشعرية لحسن السنيد نموذجا)، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية، عدد1، 2012.

5. هفاف ميهوب، أدب السجـــون تجارب مريرة تتحول إلى أدب عظيم، مجلة البناء، تصدر عن الحزب السوري القومي الاجتماعي، عدد430، 2009.

فهـــــــرس الموضوعات

مقدمة :..... أ- ج

مدخـــل : الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في عصر ملوك الطوائف... 02 - 19

الفصـــل الأول : شعر السجون

أولا : مفهوم السجن ..... 21 - 28

1. لغـــة ..... 21 - 23

2. اصطلاحا ..... 23 - 26

3. مفهوم شعر السجون 26

4. العلاقة بين الشعر والسجن..... 26 - 28

ثانيا : تطور شعر السجون ..... 28 - 54

1. العصر الجاهلي ..... 28 - 33

2. عصر صدر الإسلام ..... 33 - 36

3. العصر الأموي..... 36 - 43

4. العصر العباسي..... 43 - 49

5. في الأندلس..... 49 - 54

ثالثا : موقف الشاعر السجين من السلطان ..... 54 - 61

الفصـــل الثاني : مضامين سجنيات ابن زيدون

أولا : ابن زيدون الحياة والنشأة ..... 63 - 69

1. حياته ..... 63 - 65

2. منزلته ..... 65 - 66

3. الآثار الأدبية لابن زيدون..... 66 - 67

4. ابن زيدون و السجن..... 67 - 69

5. شعره في السجن..... 69

ثانيا : مضامين سجنيات ابن زيدون..... 70 - 96

الفصـــل الثالث : الصورة في سجنيات ابن زيدون

أولا : مصادر وأنماط الصورة عند ابن زيدون..... 98 - 122

1. الصورة المفهوم والمصطلح ..... 98 - 99

2. الصورة في النقد العربي القديم ..... 99 - 102

3. الصورة في النقد العربي الحديث ..... 102 - 104

4. مصادر الصورة في سجنيات ابن زيدون ..... 104 - 113

5. أنماط الصورة في سجنيات ابن زيدون ..... 113 - 122

ثالثا : أدوات تشكيل الصورة في سجنيات ابن زيدون ..... 122 - 143

1. الصور البيانية ..... 122 - 134

أ. التشبيه ..... 122 - 127

ب. الاستعارة ..... 127 - 131

ج. الكناية ..... 131 - 134

2. الصور البديعية ..... 134 - 143

أ. الطباق ..... 135 - 139

ب. الجناس ..... 139 - 141

ج. رد العجز على الصدر ..... 141 - 143

خاتمـــة..... 145 - 147

ملخص..... 149 - 150

قائمة المصادر والمراجع. ..... 152 - 161

فهرس الموضوعات : ..... 162 - 163